الفصل الثالث

النظر في المفردات

وقف الزمخشري كثيراً عند المفردات القرآنية يتأمل وقع كلماتها وملاءمتها للسياق . والنظر في مفردات النص الأدبي من أوجب ما يجب على مفسره ودارسه لأنها مفتاح النص وزمام ما فيه من دقيق المعاني وخفي الإشارات . وكلما أحسن الدارس هذه الوقفات واستشف من المفردات كل ما تعطيه وتلوح به من معنى ووحي ورمز كان أقدر على الاندماج والمشاركة وبهذا يصل نفسه بنفس منشئه ويحلق في آفاقه ويتابع خطراته ويملك تجربته كاملة . وحينما يصل المفسر إلى هذه الدرجة فقد وصل إلى ما ينبغي أن يصل إليه .

لقد رأيت للزمخشري في هذا الصدد تراثًا ضخمًا ومفيدًا . وقد طال نظري وتأملي لهذه الوقفات فوجدت بعضًا منها يهتم بمادة الكلمة أي بمعناها المفاد من مادتها . وبعضًا منها يهتم بهيئة الكلمة أي بمعناها المفاد من هيئتها . وبعضًا منها يهتم بحروف المعاني وأدوات الربط . وبعضًا منها يهتم بما يفيده تعريفها بأي نوع من أنواع التعريف . وبعضًا منها يهتم بمعاني تنكيرها .

وسوف أعرض لكل نوع من هذه الأنواع . وليس كل همي أن أقول إن الزمخشري نظر إلى الكلمة المفردة من حيث مادتها وهيئتها وأن أذكر هذه الأنواع ومثلاً لها من كلامه وإنما كل همي أن أصور من خلال هذا كله حسه الدقيق بمفردات النصوص وعنايته بدراسة هذا النوع المهم الذي أهمله

البلاغيون بعده ، وأن أضع صورة دقيقة لبلاغته كما يصورها تفسيره ، وأن أبين إلى أي مدى أحاطت دراسته البلاغية بكل أجزاء الكلام متتبعة له من مفرده إلى جملته ثم إلى جمله .

أما دراسته لمادة الكلمة وملاءمتها لسياقها فقد اجتهد الزمخشري في ربط مدلول الكلمة بسياقها حتى تكون ملاءمة له على أحسن وجه من وجوه الملاءمة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (ق:٣٣) : « فإن قلت : كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة ؟ قلت : للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته مع علمه أنه الواسع الرحمة كما أثنى عليه بأنه خاش مع أن المخشى منه غائب ونحوه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ (المؤمنون:٦٠) فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات »[١] .

فكلمة « الرحمن » لا تتلاءم في الظاهر مع الخشية وإنما يكون التلاؤم ظاهرًا لو قال : من خشي الجبار أو القهار ، ولكن الزمخشري يدرك وراء هذا التباعد الظاهري تقاربًا خفيًّا ملائمًا أشد الملاءمة وأحسنها ومثل هذا ما يذكره في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (الانفطار:٦) يقول : « فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ وكيف طابق الوصف بالكرم إنكار الاغترار به ؟ وإنما يغتر بالكريم كما يروى عن علي رضي الله عنه أنه صاح بغلام له كرات فلم يلبه ، فنظر فإذا هو بالباب فقال له : مالك لم تجبني ؟ فقال : لثقتي بحلمك ، وأمني من عقوبتك ، فاستحسن جوابه وأعتقه ، وقالوا : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه ؟ قلت : معناه : أن حق الإنسان ألا يغتر بتكرم الله عليه حيث خلقه حيًّا لينفعه ويتفضل عليه بذلك حتى يطمع بعد ما مكنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب ، وطرح العقاب اغترارًا بالتفضل الأول فإنه منكر خارج عن حد الحكمة ، ولهذا قال رسول الله ﷺ لما تلاها : « غره جهله »[٢] .

---

(١) الكشاف ٤/٣٠٩، ٣١٠ .

(٢) المرجع السابق ٤/٥١٧ .

وقد يعمد القرآن إلى إثبات المعنى بنفي ضده ، ويقف الزمخشري عند هذا اللون ليكشف أن للفظ إشاراته الخفية التي هي جزء من المعنى القائم به فكلمة «فاسد» لا تؤدي فقط معنى غير صالح ، ونحن وإن كنا نفسر الفساد بعدم الصلاح والصلاح بعدم الفساد فهذا هو تفسير منا لظاهر المعنى الـذي لا يكون وحده مرادًا في النسق ، يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ** ﴾ (هود:٤٦) : «فإن قلت : فهلا قيل إنه عمل فاسد ؟ قلت : لما نفاه عن أهله نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقى معها لفظ المنفى ، وآذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لأنهم أهلُكَ وأقاربك ، وإن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعـه أبـوتك ، كقـولـه : ﴿ **كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا** ﴾ (التحريم:١٠)[١] .

ولهذا الرمز الخفي يصف القرآن الكريم يوم القيامة بأنه عسير ، ثم يصفه بأنه غير يسير على الكافرين يقول تعالى : ﴿ **فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ** ﴾ (المدثر:٨-١٠) والزمخشري يعلق على هذا بقوله : «فإن قلت : فما فائدة قوله ﴿ **غَيْرُ يَسِيرٍ** ﴾ وعسير مغن عنه ؟ قلت : لما قال : ﴿ **عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ فقصر العسر عليهم قال : ﴿ **غَيْرُ يَسِيرٍ** ﴾ ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هينا ، ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم . ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجع يسيراً كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا»[٢] .

ويقف الزمخشري عند استعمال القرآن لكلمة «عوج» فقد دل بنفيها على إثبات الاستقامة للقرآن في قوله تعالى : ﴿ **قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ** ﴾ (الزمر:٢٨) ويقارن بين هذا المعنى وبين قولنا : مستقيمًا أو غير معوج ،

---

(١) الكشاف ٣١٢/٢ .

(٢) المرجع السابق ٥١٧/٤ .

ويستخرج من تعبير القرآن فائدتين ، الأولى نفى أن يكون فيه عوج قط ، والثانية أن لفظ «عوج» مختص بالمعاني دون الأعيان[1] .

ويقول القرآن في موضع آخر : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا ﴾ (الكهف:١،٢) فيجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة ، ويقول الزمخشري : «فإن قلت : ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر ؟ قلت : فائدته التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح»[2].

فإذا ما نقل القرآن استعمال الكلمة من المعاني التي هي مختصة بها إلى الأعيان اجتهد الزمخشري في بيان ملاءمتها لسياقها ولماذا آثرها القرآن على غيرها . يقول في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ (طه:١٠٥-١٠٧):

«فإن قلت : قد فرقوا بين العِوج والعَوج فقالوا العوج بالكسر في المعاني والعوج بالفتح في الأعيان والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين؟ قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون ، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة واتفقتم على أنه لم يبق فيها عوج قط ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر ، ولكن بالقياس الهندسي فنفى الله عز وجل ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك ، اللهم إلا بالمقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل عِوج بالكسر»[3].

---

(١) ينظر : الكشاف ٤/٩٧ .
(٢) المرجع السابق ٢/٥٤٨ .
(٣) المرجع السابق ٣/٦٩ .

والكلمة الواحدة لها إيحاءان مختلفان حسب سياقها ، فقد عبر القرآن الكريم بكلمة «سيق» في جانب الكافرين وسوقهم إلى جهنم زمرًا ، وفي جانب المؤمنين وسوقهم إلى الجنة زمرًا . ويقف الزمخشري عند هذا اللفظ في هذين المقامين المتباينين ، ليشير إلى إيحائه هنا وإيحائه هناك فيقول : «فإن قلت : كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعًا بلفظ السوق ؟ قلت : المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف ، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، والمراد بسوق أهل الجنة ، سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين وحثها إسراعًا بهم إلى دار الكرامة والرضوان ، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك ، فشتان ما بين السوقين»[1] .

والزمخشري يجتهد كما قلنا في توضيح ما في اللفظ القرآني من تلويحات، يبث الحذر والإشفاق بها في قلوب المؤمنين حتى تستقيم نفوسهم على الجادة، واللفظ القرآني غني بهذه الإيحاءات لأنه كتاب تهذيب وتقويم وطريقته في التهذيب والتقويم هي النفاذ إلى النفس الإنسانية وقيادتها وإقامتها قيمة على نفسها ، وطريقة التلويح والإيحاء طريقة لا تخطئ في النفاذ إلى النفس وإيقاظها والتأثير فيها . يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ **وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ** ﴾ (طه:١٢١) : «بهذا الإطلاق والتصريح وحيث لم يقل «وزل آدم وأخطأ» وما أشبه ذلك مما يعبر به عن الزلات والفرطات ، فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة ، وموعظة كافة ، وكأنه قيل لهم : انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة وبهذا اللفظ الشنيع ، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر ، فضلاً أن يجسروا على التورط في الكبائر»[2] .

---

(١) الكشاف ٤/١١٤ .

(٢) المرجع السابق ٣/٧٤ .

ومن هذا تعليل القرآن عقاب الكافرين بما هو أعم من السبب الحقيقي لهذا العقاب ، فالذين استكبروا عن آيات الله لا يدخلون الجنة لعنادهم ، والقرآن لا يعلل حرمانهم من الجنة بهذه العلة الحقيقية وإنما يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف:٤٠) ، فيعلل هذا الخلود في النار بالإجرام ، والإجرام عام يشمل التكذيب والاستكبار وغير ذلك من الذنوب ، والزمخشري يفصح عن سر العدول إلى لفظ الإجرام وكيف يلوح لهم بهذا اللفظ فقد قال : ﴿ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ليؤذن أن الإجرام هو السبب الموصل إلى العقاب وأن كل من أجرم عوقب وقد كرره فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف:٤١) لأن كل مجرم ظالم لنفسه »[١] .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ (البقرة:١٠) : « والمراد بكذبهم قولهم : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ (البقرة:٨) وفيه رمز إلى قبح الكذب وسماجته ، وتخييل أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ (نوح:٢٥) والقوم كفرة وإنما خصت الخطيئات استعظامًا لها وتنفيرا عن ارتكابها »[٢].

ويوضح هذا المعنى في آية نوح ويقول : « وكفى به مزجرة لمرتكب الخطايا فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم ، وإن كانت كبراهن وقد نعيت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعى عليهم كفرهم ولم يفرق بينه وبينهن في استيجاب العذاب لئلا يتكل المسلم الخاطئ على إسلامه ويعلم أن معه ما يستوجب به العذاب وإن خلا من الخطيئة الكبرى »[٣] .

---

(١) الكشاف ٨٢/٢ .
(٢) المرجع السابق ٤٦/١ ، ٤٧ .
(٣) المرجع السابق ٤٩٦/٤ .

وقد يذكر القرآن الكريم الأنبياء المشهورين بلفظ العبد الذي يشمل الناس جميعًا برهم وفاجرهم ، ويلمح الزمخشري المعنى الأدبي وراء هذا الإطلاق ويبين مراد القرآن به وأنه تأصيل صفة البشرية والعبودية في هؤلاء المختارين وأنهم لم يرتقوا إلى درجاتهم إلا بصالح الأعمال يقول في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ ﴾ (التحريم:١٠) : «فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ؟ قلت : لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائنا من كان وأنه وحده الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند الله ، قال : ﴿ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ ﴾ فذكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبدان لم يكونا إلا كسائر عبادنا من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده ، إظهاراً وإبانة لأن عبداً من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير ، وأن ما سواه مما يرجح به الناس ليس بسبب للرجحان»[1] .

ويقف الزمخشري عند كلمة «طبن» في قوله تعالى : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا ﴾ (النساء:٤) ويبين تصويرها لنفوس هؤلاء النسوة وما ينبغي أن يحتاط به الأزواج عند قبول الموهوب من نحلتهن فيقول : «وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط حيث بني الشرط على طيب النفس فقيل : «فإن طبن» ولم يقل : فإن وهبن وسمحن ، إعلامًا بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبة ، وقيل : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ ﴾ ولم يقل : فإن طبن لكم عنها ، بعثًا لهن على تقليل الموهوب»[2] .

ويستوحي معاني الاحتقار والازدراء من كلمة «أدبر» التي وصف بها القرآن فرعون في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ (النازعات:٢٢) [3] ، ويكشف ما تلوح به كلمة «ذرأ» من تجهيل المشركين وغفلتهم في قوله تعالى :

---

(١) الكشاف ٤/٤٥٨ .
(٢) المرجع السابق ١/٣٦٣ .
(٣) المرجع السابق ٤/٥٥٦ .

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ (الأنعام:١٣٦) [١] ، ويشير إلى ما في كلمة «أخ» من معاني المحبة والمودة التي تحبب العفو إلى نفس ولي الدم في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ (البقرة:١٧٨)[٢] ، ويشير إلى ما في لفظ «الخرطوم» من الاستخفاف والاستهانة في قوله تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ (القلم:١٦) [٣] ، وفي كلمة «بارئكم» في نداء موسى عليه السلام لبني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ (البقرة:٥٤) معنى التقريع واللوم لأنهم تركوا عبادة الباري أي الذي خلق الخلق بريا من التفاوت إلى عبادة البقرة وهي مثل في البلادة[٤].

والزمخشري يشير إلى الفروق بين دلالات الألفاظ المتقاربة ويبين في ضوء هذه التفرقة الدقيقة سر اختيار كل كلمة في موضعها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام:١) : « والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير ... وفي الجعل معنى التصيير كإنشاء شيء من شيء أو تصيير شيء شيئًا أو نقله من مكان إلى مكان ، ومن ذلك : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (الأعراف:١٨٩) ، و﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ (الأنعام:١) ، لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة والنور من النار ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ (فاطر:١١) ، ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ (ص:٥) .

وقد تبدل كلمة مكان أخرى في آية مشابهة ويلحظ الزمخشري هذا ويناقشه ويبحث المقامين ويشرح أسلوب الآيتين وكيف اقتضى كل مقام من المقامين هذه الكلمة بعينها ، وله في هذا كلام جيد يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنبياء:٤) [٥].

---

(١) ينظر : الكشاف ٥٣/٢ .
(٢) المرجع السابق ١٦٧/٢ .
(٣) المرجع السابق ٤٧٣/٤ .
(٤) المرجع السابق ١٠٥/٢ .
(٥) الكشاف ١/١ .

« فإن قلت : هلا قيل يعلم السر لقوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ﴾ ؟ قلت : القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول : يعلم سرهم ، كما أن قوله « يعلم السر » آكد من أن يقول : يعلم سرهم ، ثم بين ذلك بأنه ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ لذاته فكيف تخفى عليه خافية . فإن قلت : فلم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفرقان:٦) ؟ قلت : ليس بواجب أن يجيء بالآكد في كل موضع ولكن يجيء بالوكيدة تارة وبالآكد أخرى كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتن الكلام افتتانا وتجمع الغاية وما دونها ، على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى فكأنه أراد أن يقول : إن ربي يعلم ما أسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة ، وثَمَّ قصد وصف ذاته : ﴿ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفرقان:٦) فهو كقوله : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ ، ﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ (سبأ:٣)[1] .

وفي هذا النص يتضح رأيه في تفاوت بلاغة القرآن بين البليغ والأبلغ ، والحسن والأحسن ، ليجمع الغاية وما دونها كما يقول . وفيه نزعة اعتزالية لا نتعرض لها لأننا منصرفون إلى تمحيص البحث البلاغي في هذا الكتاب إما أن الصفات عين الذات كما يقول أو غيرها كما يقول أهل السنة وكما رد بذلك ابن المنير في قوة جدل فذلك أمر لا نريد أن نزحم بحثنا به .

والزمخشري يعتمد في تفسير الكلمة على خبرته اللغوية وإحاطته بمفردات اللغة ومعانيها وعلى فقه الأساليب وإدراك المقامات التي تجري فيها الكلمة وتكون فيها معروفة مشهورة ، ثم على ذوقه الذي يقبل ويرفض ، وله في هذا الكلمة العليا .

---

(١) الكشاف ٨١/٣ ، وينظر : الشهاب الخفاجي ٣٤٥/٦ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ ﴾ : « فإن قلت : هلا فسرت « عفى » بـ« ترك » حتى يكون « شيء » في معنى المفعول به ؟ قلت : لأن عفى الشيء بمعنى تركه ليس يثبت ولكن إعفاءه ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « واعفوا اللحى » . فإن قلت : فقد ثبت قولهم : عفا أثره ، إذا محاه وأزاله ، فهلا جعلتم معناه : فمن محي له من أخيه شيء ؟ قلت : عبارة قلقة في مكانها والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال الناس فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقة نابية عن مكانها »[1] .

وقد يشير في تفسير الكلمة إلى مدلولها الحسي ويربط بين هذا المدلول وبين المراد منها ، وحسه في هذا دقيق بالغ ، يقول في قوله تعالى : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ (النساء:١٤٣) : « ومعنى « مذبذبين » ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر فهم مترددون بينهما متحيرون ، وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين أي يزاد ويدفع فلا يقر في جانب واحد كما قيل : فلان يرمي به الرحوان ، إلا أن الذبذبة فيها تكرار ليس في الذب ، كأن المعنى : كلما مال إلى جنب ذب عنه »[2] .

وقد يتتبع الزمخشري الكلمة في معجم القرآن الكريم ويحدد دلالتها في ضوء هذا التتبع ويرفض أن يكون المراد منها معنى آخر وإن أقرته اللغة ، وهذا لفت قديم إلى وجوب النظر في ألفاظ القرآن في ضوء معجمه واستعمالات ألفاظه لكن هذا اللفت القديم ظل غائمًا ، ولو قدر لدراستنا الأدبية أن تلتفت إلى هذه الطريقة لكان لدينا الآن تراث أكثر خصوبة في هذا المجال . ويقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ (النور:٣) : « وقيل : المراد بالنكاح الوطء وليس بقول ، لأمرين : أحدهما : أن هذه الكلمة أينما وردت في القرآن

---

(١) الكشاف ١٦٧/١ .

(٢) المرجع السابق ٤٤٩/١ .

لم ترد إلا في معنى العقد . والثاني : فساد المعنى وأداؤه إلى قولك : الزاني لا يزني إلا بزانية والزانية لا يزني بها إلا زان»[1] .

والزمخشري قد يُسَوِّي بين لفظتين في الدلالة والتحقيق أن بينهما فرقا ، يقول في قوله تعالى : ﴿ **إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا** ﴾ (آل عمران:١٢٠) : «فإن قلت : كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة ؟ قلت : المس مستعار لمعنى الإصابة فكان المعنى واحدًا ألا ترى إلى قوله : ﴿ **إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ** ﴾ (التوبة:٥٠) ، ﴿ **مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ (النساء:٧٩) ، ﴿ **إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا** ﴾ (المعارج:٢٠-٢١)[2] .

وهو حينما يسوق هذه الآيات التي ذكرت فيها الإصابة مع الحسنة ومع السيئة وذكر فيها المس مع الشر لم يبحث الفرق بين سياق هذه الآيات وسياق الآية التي يتحدث فيها . إذ أنها تحذر المسلمين من الاطمئنان إلى الكافرين وأخذ الصفي والخليل منهم ، ثم تصور ما تنطوي عليه صدورهم من الكراهية والبغضاء وتعتب على المسلمين غفلتهم وحبهم لهؤلاء الذين لا يحبونهم ، ثم رسمت صورتهم وهم في خلوتهم يعضون الأنامل من الغيظ . فكان المقتضى والحال كما صورها القرآن أن يكون مس الحسنة وهو أقل قدر من الخير ينال المسلمين ، مسيئًا لهم أبلغ إساءة ، وأن تكون إصابة السيئة وتمكنها من المؤمنين أمرًا سارًّا لهم ، فالمس لا يساوي الإصابة .

ولو رجعنا إلى الأصل اللغوي لوجدنا المس أقل من الإصابة فالمس هو اللمس ، ومن مجازاة مس العذاب ومس الخير .

---

(١) الكشاف ١٦٧/٤ .

(٢) المرجع السابق ٤١٧/٤ .

وقال الزمخشري في الأساس : مسه مسًّا ومسيسًا وماسه مماسة ومساسًا وهما يتماسان ... ومن المجاز مسه الكبر والمرض ، ومسه العذاب[1] ، أما الإصابة فإنها ترجع إلى إصابة الرمية أي رمى فأصاب ، ومنه إصابة المطر الأرض وهذا أبلغ من المس واللمس .

وقد كثر استعمال المس في القرآن للإصابة الخفيفة كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ (الأنبياء:٤٦)، وكقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (هود:١١٣)، وقوله : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ (آل عمران:١٤٠)، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ (فصلت:٥١)، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ (الروم:٣٣) ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ (النحل:٥٣) وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ (يونس:١٢) ، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ (الإسراء:٨٣) ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (المعارج:١٩-٢١) ، وغير ذلك من الآيات التي يهدينا فيها التأمل إلى أن المس فيها أقل من الإصابة . على أننا نجد بعض الآيات يستعمل فيها المس مع العذاب الأليم والعذاب العظيم كقوله تعالى حكاية عن أهل أنطاكية ومخاطبتهم لرسل عيسى عليه السلام : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (يس:١٨) ، وكقوله تعالى في آية الإفك : ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال:٦٨) ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ (الأنعام:٤٩) ، وقوله تعالى : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (هود:٤٨) ، ويمكن أن يقال : إن سياق هذه الآيات ومقام التهديد والوعيد فيها

---

(١) الأساس ص ٨٩٩ ، ٩٠٠ .

يكسب المس معنى أقوى وأبلغ ، وذلك بخلاف آية آل عمران التي نناقش الزمخشري فيها فإن سياقها يساعد على الذي قلناه .

وقد تنبه ابن المنير إلى هذا وقال : « يمكن أن يقال : المس أقل تمكنًا من الإصابة وكأنه أقل درجاتها ، فكان الكلام والله أعلم : إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرثى الشامت عنده فهم لا يرثون لكم ولا ينفكون عن حسدهم »[1] .

ومما نرى الزمخشري فيه سوى بين المفردات وأغفل ما فيها من إشارات قوله في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ (الحجر:٣٤-٣٨) . قال الزمخشري : و﴿ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ و﴿ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ و﴿ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ في معنى واحد ولكن خولف بين العبارات سلوكًا بالكلام طريقة المبالغة »[2] .

وقد نلحظ فروقًا بين الكلمات الثلاث المضافة إلى اليوم فإن ﴿ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ يشير إلى ما يلاقيه إبليس من الجزاء على معصيته وتمرده ، وهذه الإشارة لا تجدها في الكلمتين الأخيرتين وإنما نراها في كلمة ﴿ ٱلدِّينِ ﴾ . و﴿ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ يشير إلى طلب أقصى المدة فإبليس يطلب الإنظار إلى يوم البعث لا إلى يوم تقوم الساعة ، و﴿ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ فيه نبرة تهديد لا تخطئها الأذن أي إلى يوم الوقت الذي تعرف ما فيه من العذاب والأخذ الشديد . فإذا كانت الكلمات الثلاث تشترك في المدلول العام فإن لكل كلمة خصوصية في الدلالة لاءمت موقعها ، فليست الكلمات الثلاث في معنى واحد كما يقول الزمخشري .

---

(١) حاشية ابن المنير هامش الكشاف ٣١٣/١ .

(٢) الكشاف ٤٥٠/١ .

نظرات في هيئة الكلمة

(أ) الجمع والإفراد :

وفي نظرات الزمخشري للكلمة المفردة يَبْصُر السر البلاغي لإفراد الكلمة وجمعها جمع قلة أو جمع كثرة ويساعده على لمح ما في هذه الهيئات من وحي وإشارات حس أدبي وذوق بصير .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ (لقمان:٢٧) : « فإن قلت : لم قيل « من شجرة » على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر ؟ قلت : أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا بريت أقلامًا »[1] .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (المائدة:٥٥) : « فإن قلت : قد ذكرت جماعة فهلا قيل : إنما أولياؤكم ؟ قلت : أصل الكلام : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فجعلت الولاية لله على طريق الأصالة ، ثم نظم في سلك إثباتها له إثباتها لرسول الله ﷺ ، والمؤمنين على سبيل التبع . ولو قيل : إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا ، لم يكن في الكلام أصل وتبع »[2] وهذا جيد بالغ .

ويلحظ الزمخشري أن الكلمة الواحدة تقع مفردة مرة وجمعًا مرة في سياق واحد وآيات متحدة في الغرض ثم يجتهد في بيان ملاءمة صيغة الإفراد لموقعها الخاص بها ، وملاءمة صيغة الجمع لموقعها الخاص بها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ

(١) الكشاف ٣٩٦/٣ .
(٢) المرجع السابق ٥٠٥/١ .

﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ (المؤمنون:١-٩) ، يقول الزمخشري : « وأيضًا فقد وحدت ـ يعني الصلاة ـ أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت ، وجمعت آخراً لتفاد المحافظة على أعدادها وهي الصلوات الخمس ، والوتر ، والسنن المرتبة مع كل صلاة ، وصلاة الجمعة ، والعيدين ، والجنازة ، والاستسقاء »[1] .

وكذلك يفسر الإفراد والجمع في المقام الواحد بما خبر من أخلاق الناس وعرف من أحوالهم وعاداتهم .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ (الشعراء:١٠٠،١٠١) : « فإن قلت : لم جمع الشافعين ووحد الصديق ؟ قلت : لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ، ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته ، رحمة له وحسبة ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة ، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك فأعز من بيض الأنُوق ، وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقيل : اسم لا معنى له »[2] .

وابن المنير وإن كان له ذوق في فهم الأساليب يتعجب من هذه الوقفة ويبني عجبه على أن كلمة « صديق » تدل على الجمع كما تدل على المفرد ، ولكنه غفل عن ما لفت الزمخشري وأبان عنه في دقة ، وهو الخلاف بين الكلمتين من ناحية الجمع والإفراد ، وإن كانت كل واحدة دالة على الجمع . ونلحظ في كلام ابن المنير روح الجدل الفقهي ، كما نلحظ فيه كلمات انفعالية تدل على موقفه المتعصب ، يقول ابن المنير معلقًا على كلام الزمخشري السابق : « والعجيب أن الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع فما الدليل على إرادة الإفراد ؟ ثم لو

---

(١) الكشاف ٣/١٤٠ .

(٢) المرجع السابق ٣/٢٥٤ .

كان المراد الإفراد لكان أعم لأنه في سياق النفي فينفي الواحد وما زاد عليه إلى ما لا نهاية له»[1] . ولا ينهض هذا مع قوته اعتراضًا على الزمخشري لأن الصديق وإن كانت تطلق على الجمع فإن السؤال : لماذا خالف القرآن بين الكلمتين وعمد إلى الجمع في «شافعين» والإفراد في «صديق» وإن كان مدلولهما واحدًا ؟

وقد يلحظ الزمخشري في صيغة الجمع لمسة أخلاقية لا يدركها إلا من له بصيرة في ذوق الأسلوب ، يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات:٤) .

«ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا على الحجرات متطلبين له فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك وأنهم قد أتوا حجرة فنادوه من ورائها وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ، ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ ولمكان حرمته»[2] .

فالزمخشري يدرك الفرق بين أن يكون التعبير : إن الذين ينادونك من وراء حجرتك أو من وراء الحجرة ، وبين ما جاء عليه القرآن ، وأن في كلمة حجرة بهذا النص وهذا التحديد معنى يكره القرآن أن يواجه به محمد صلوات الله عليه إجلالاً لحرمته فيأتي بصيغة الجمع ليفهم هذا التنصيص ضمن مدلولها حتى لا يتجه إليه الفكر منفردًا ، وإنما يكتفي باللمسة الخفيفة والإشارة التي هي كالوحي في هذا المقام . ولهذا المعنى يقول الزمخشري معلقًا على هذه الآية ومتعجبًا مما تتضمنه من عناصر البلاغة وإعجاز البيان : «فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله ، منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين بالسفه والجهل لما أقدموا عليه ، ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع

---

(١) حاشية ابن المنير على هامش المرجع السابق .
(٢) الكشاف ٤/٢٨٤ .

خلوته ومقيله مع بعض نسائه ، ومنها المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين له ما استنكر عليهم»[1].

وصيغة الجمع قد تشعر بمعاني التعظيم والإجلال حينما يوضع ما للجماعة للواحد . وقد أشار النحاة إلى هذا المعنى في الضمائر وقالوا : إن ضمير جمع المتكلمين المتصل أو المنفصل قد يأتي للمتكلم المعظم نفسه . والزمخشري ينقل هذا من ضمائر الجمع إلى صيغ الجمع فيقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ (الصافات:٧٥) : «والجمع دليل العظمة والمعنى : أنَّا أجبناه أحسن الإجابة وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون»[2].

وقد يأتي القرآن الكريم بجمع القلة مكان جمع الكثرة ليشير بهذا إلى معنى ، وقد يعكس هذا فيأتي بجمع الكثرة مكان جمع القلة ، والزمخشري يقف في هذه المقامات محاولاً كشف هذه الإشارات والإفصاح عن النكتة البلاغية وهو في هذا قد يصيب وقد ترى أن تخالفه .

فمن ذلك وهو فيه مصيب قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ (آل عمران:١٢٣) قال : «والأذلة جمع قلة والأذلاء جمع الكثرة ، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً ، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال ، وقلة السلاح والمال المركوب»[3].

ومنه ما قاله في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ (الفرقان:٧٤) قال : «وإنما قيل «أعين» دون عيون لأنه أراد عين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ:١٣)[4].

---

(١) الكشاف ٢٨٤/٤ .
(٢) المرجع السابق ٣٧/٤ .
(٣) المرجع السابق ٣١٦/٤ .
(٤) المرجع السابق ٢٣٣/٣ .

فإذا وقف الزمخشري عند آية : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة:٢٢٨) ورأى كلمة «قروء» وهي جمع كثرة مستعملة في موطن جمع القلة أغفل هذه الأسرار التي تنطوي عليها الكلمة القرآنية وحمل الأمر على الاتساع . وما كان للزمخشري وهو الأديب المتذوق أن يهمل لمحة اللفظ أو يغفل عنها . وأن يحملها على الاتساع لأن الاتساع يعني التسوية في أداء المعنى . وقد سبق أن ذكر الزمخشري مثل هذا في قوله تعالى : ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، ﴿ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ، ﴿ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ ، وقد سبق أن نبهنا إلى بعض الفروق في الكلمات الثلاث ، وهنا يقول الزمخشري : «فإن قلت : لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراء ؟ قلت : يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية ، ألا ترى إلى قوله «بأنفسهن» وما هي إلا نفوس كثيرة ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء من الأقراء فأوثر عليه تنزيلا لقليل الاستعمال منزلة المهمل فيكون مثل قولهم : ثلاثة شموع»[1].

ونرى أن جمع الكثرة في «قروء» يشير إلى وجوب الاحتياط في استيفاء مدة العدة حتى لا تتعجل المرأة المطلقة عدتها ، وقد أشار إلى هذا بعض النحاة. أما أنهم يتسعون في هذا ويستعملون جمع الكثرة مكان جمع القلة فهذا يصح تعليلاً في كلام الناس ، على أننا لا نعدم تلك الإشارات في صياغات كلام الموهوبين ، وقد تكون هذه الإشارات دون وعي منهم وإنما هو أثر الموهبة والحس اللغوي . أما في كلام الله فإننا نرفض مثل هذا التعليل . وليس هذا الرفض مبنيًّا على حماس ديني وإنما هو النظر والتذوق ، أما قوله فيما ساقه شاهدًا على الاتساع : «ألا ترى إلى قوله ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ وما هي إلا نفوس كثيرة» فقد أغفل الزمخشري فيه أيضًا النكتة البلاغية ، وذلك لأن «الأنفس» وهي جمع قلة استعملت هنا مكان جمع الكثرة لتشير إلى معنى

---

(١) الكشاف ١/٢٠٦-٢٠٨ .

التقليل والتهوين من شأن هؤلاء النسوة الطامحات إلى الأزواج قبل تمام عدة صاحبها الأول . فالآية الكريمة تحدد عدة المرأة المطلقة وتوحي بكمال هذه العدة وتمامها غاية التمام وأسلوبها فيه تشديد على المطلقة في هذا الموقف وفيه لذعات . فكلمة «يتربصن» تشير إلى أنها تعالج أمر نفسها الطامحة إلى الزواج ، وكلمة «بأنفسهن» فيه تهييج لهن ولذع بتوق نفوسهن إلى الرجل . وكان لذع الأسلوب أنكى حينما قال : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ (البقرة:٢٢٨) وكأنه يشير إلى أن بعضهن يفعلن هذا ، وقوله : ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ (البقرة:٢٢٨) شرط فيه قسوة . وفي هذا السياق العام أطمئن إلى أن اختيار جمع القلة هنا في كلمة «الأنفس» فيه إشارة إلى التقليل والتهوين لتتلاءم هذه الخصوصية وتتجاوب مع هذا السياق .

(ب) المعاني البلاغية لصيغ الأفعال :

والزمخشري يلحظ ما في صيغة المضارع من المعاني الأدبية ويشير إلى قدرتها على التصوير وإحضار الحدث ، وكأنما تراه العين وتسمعه الأذن .

يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ (ص:١٨) : «ويسبحن : في معنى مسبحات على الحال ، فإن ، قلت : هل من فرق بين يسبحن ومسبحات ؟ قلت : نعم ، وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئًا بعد شيء وحالا بعد حال ، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح ، ومثله قول الأعشى :

* إلى ضَوْءِ نارٍ في يَفَاعٍ تَحَرَّقُ *

ولو قال «محرقة» لم يكن شيئًا»[1] .

---

(١) الكشاف ٤/٦٠ ، ٦١ .

وقد تأثر الزمخشري في هذا بالإمام عبد القاهر الذي يذكر الفرق بين الإخبار بالفعل والإخبار بالاسم ويقول : « إنه فرق لطيف تمس الحاجة في علم البلاغة إليه » ثم يعلق على بيت الأعشى المذكور في كلام الزمخشري بقوله : معلوم أنه لو قيل : إلى ضوء نار متحرقة لنبا عنه الطبع وأنكرته النفس »[1].

ومثل هذه المقارنة بين صيغة المضارع وصيغة اسم الفعل تكرر في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ (الملك:١٩) يقول الزمخشري : « فإن قلت : لم قيل : « يقبضن » ولم يقل قابضات ؟ قلت : « لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح »[2].

فالفعل يفيد التجدد والحدوث . والاسم يفيد الثبوت والاستمرار ، ولا معنى لإحضار الصورة هنا لأن ذلك يكون في حكاية الحال الماضية وما هنا ليس كذلك لأن الناس يرون الطير فوقهم صافات ويقبضن في كل زمان ، فالآية وصف صادق ودقيق للطير في حال طيرانه .

وقد يقع المضارع مكان الماضي فيقارن الزمخشري بين الصيغتين ويبين دلالة المضارع وقيمتها في الأسلوب .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ ﴾ (فاطر:٩) : « فإن قلت : لم جاء « فتثير » على المضارع دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : ليحكي الحال التي تقع عليها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة البديعية الدالة على القدرة الربانية وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شرا :

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ص ١١٤-١١٦ .
(٢) الكشاف ٤/٤٦٥ .

بأَنِّي قد لَقِيتُ الغُولَ تَهْوى بِسَهْبٍ كالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فأَضْرِبُها بلا دَهَشٍ فخرَّتْ صَرِيعًا لليَدَيْنِ وللجِرَانِ

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة»[1].

ومثل هذا يذكره في قوله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل ومنكرًا عليهم جسارتهم على أنبيائه عليهم السلام : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة:٨٧) . قال الزمخشري : «فإن قلت : هلا قيل وفريقًا قتلتم ؟ قلت : هو على وجهين أن تراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب وأن يراد ...»[2] .

وقد يقع المضارع موقع الماضي ولا يكون الغرض منه استحضار الصورة ، وإنما يشير إلى أن هذا الحدث مستمر ، وهنا فرق بين معنى الاستمرار في الفعل المضارع ومعنى الاستمرار في صيغة الاسم . يقول في قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ (الحجرات:٧) : «فإن قلت : فلم قيل «يطيعكم» دون أطاعكم ؟ قلت : للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبون وأنه كلما عَنَّ لهم رأي في أمر كان معمولا عليه بدليل قوله : ﴿ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ ، كقولك : فلان يقري الضيف ويحمي الحريم ، تريد أنه مما اعتاده ووجد منه»[3].

ومثل هذا المعنى للفعل المضارع الواقع موقع الماضي ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الحج:٢٥) قال: «يقال:

---

(١) الكشاف ٣/٢٧٤ .
(٢) المرجع السابق ١/١٢١ .
(٣)المرجع السابق ٤/٢٨٧ .

فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين ، لا يراد حال ولا استقبال وإنما يراد استمرار وجود الحال منه والنعشة في جميع أزمنته وأوقاته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال:٤٧) أي الصدود منهم مستمر دائم »[١].

ويلحظ الشهاب فرقًا بين الاستمرار التجددي الذي يفهم من آية : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ والاستمرار في قوله « يصدون » ، لأن استمرار الصد غير متجدد ، فلا تتخلله فترات انقطاع للحدث بل هو مستمر دائم . والاستمرار في الأولى تتخلله فترات انقطاع بدليل قوله : كلما عَنَّ لهم . قال البيضاوي في آية ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ مقتبسًا من كلام الزمخشري أو ملخصًا له : « لا يريد به حالا ولا استقبالاً وإنما يريد به استمرار الصدود منهم كقولهم : فلان يعطي ويمنع ، ولذلك حسن عطفه على الماضي » قال الشهاب : « جعل الفعل المضارع دالاً على الدوام كقولهم : فلان يحسن إلى الفقراء ، إذ المراد به استمرار وجود الإحسان كما في الكشاف . وهذا غير الاستمرار التجددي وغير دلالة الاسمية الخبرية فعلاً على الثبوت لتصريحه به في قوله : ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (المؤمنون:٧٦)[٢].

وتتكرر هذه الدلالة في صيغة المضارع وتتكرر إشاراته إليها في قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ ﴾ (الشورى:٣) ولم يقل « أوحى » ليدل على أن الوحي من عادته وفي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ (الحج:٦٣) حيث قال « فتصبح » ولم يقل : فأصبحت ، ليشير إلى أن خضرتها تبقى وتتجدد زمانًا بعد زمان كقولك : أنعم عليَّ فلان فأروح وأغدوا في نعمه ، ولو قلت : فرحت وغدوت لم يكن شيئًا »[٣].

---

(١) الكشاف ١١٩/٣ .

(٢) حاشية الشهاب الخفاجي ٢٩١/٦ وينظر : كلام البيضاوي في نفس الصفحة على الهامش .

(٣) ينظر : الكشاف ١٣٢/٣ ، ١٦٣/٤ .

وقد يختلف نوع الفعل في الآية الواحدة والمقام الواحد ويلفتنا الزمخشري إلى السر وراء هذا الاختلاف ويشير إلى لمحته الدالة .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ (هود:٥٤) : « فإن قلت : هلا قيل : إني أشهد الله وأشهدكم ؟ قلت : لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل بهم عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما تقول لمن يبس الثرى بينه وبينك : أشهد على أني لا أحبك »[1] .

وللزمخشري نظرات في صيغ الأفعال الماضية يشير فيها إلى المعاني البلاغية التي تفيدها هذه الصيغ في مقاماتها المختلفة . فالقرآن الكريم يختار صيغة « فَعَّل » على صيغة « أفعل » في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣) لأن المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم « وهو من مجازه لمكان التحدي ، وذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هذا من عند الله مخالفًا لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجومًا سورة بعد سورة وآيات غب آيات على حسب النوازل وكفاء الحوادث وعلى سنن ما ترى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقًا حينًا فحينًا وشيئًا فشيئًا حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة لا يلقى الناظم ديوان شعره دفعة ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة جملة واحدة ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ (الفرقان:٣٢) . فقيل : إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدرج فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه وهلموا نجمًا فردًا من نجومه »[2] .

---

(١) الكشاف ٣١٥/٢ .

(٢) المرجع السابق ٧٣/١ .

ويفرق بين دلالة «فعل» و«افتعل» ويشير إلى ما فيها من معاني الاهتمام والاعتمال ولهذا تقع مع الأحداث التي تنجذب إليها النفوس وتكون موضع تعلقها واهتمامها ، يقول في قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة:٢٨٦) :«فإن قلت : لم خص الخير بالكسب ، والشر بالاكتساب ؟ قلت : في الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمارة به كانت في تحصيله أعمل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال»[1].

وقد يشير إلى أهمية صيغة الكلمة وإصابتها لموقعها وأثرها في نفسه من غير أن يشرح هذه الأهمية ولا أن يوضح هذه الإصابة ، وهذا لون من دراسة البلاغة التي يعتمد فيها على حسه ثم لا يعلل . وإذا كانت من عادته أن يشرح عناصر الجودة وأسس البلاغة فلا ضير أن يتركنا لأنفسنا في بعضها وحسبه أن يشير إلى ما يجد .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ (مريم:٧٨) : «من قولهم أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه وأطلع الثنية قال جرير : «لاقَيْتُ مُطَّلع الجبال وُعُورا» ويقولون : مَرَّ مطلعا لذلك الأمر عاليا له ، مالكا له ، ولاختيار هذه الكلمة شأن»[2].

وبناء الماضي للمجهول له مواقع أدبية يلمحها الزمخشري ويشير إليها ويربطها بالموقف الذي تصوره الآية ويكشف عن أهميتها في المعنى ، فالسحرة لما رأوا آية موسى عليه السلام واستيقنوها بعد ما سحروا أعين الناس واسترهبوهم بادروا بالانقياد والسجود لله سبحانه. والقرآن يصور هذه المفاجأة العظيمة وهذه السرعة الفائقة في الانقياد والاستسلام في هذا الموقف الذي تمثل فيه الصراع بين حق موسى وباطل فرعون واجتمع الناس فيهم

---

(١) الكشاف ٢٥٤/١ .

(٢) المرجع السابق ٣٠/٣ .

لعلهم يتبعون السحرة إن كانوا هم الغالبين ، يقول سبحانه : ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ (الأعراف:١١٨-١٢٠) ، والزمخشري يعلق على هذا بكلمة موجزة تكشف عن هذا الموقف العجيب ويستوحي حركة بناء الفعل الماضي للمجهول ويقول : ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ خروا سجداً كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم ، وقيل : لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا»[1] ويستوحي هذا البناء في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود:٤٤) .

يقول : «ومجيء إخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلالة والكبرياء وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله . فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره : ﴿ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي ﴾ ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره»[2].

وهناك نظر آخر لصيغة الماضي لا يتعلق ببنائها للمعلوم ولا للمجهول ولا بمجيئها على «أفعل» أو «فعل» أو «افتعل» ، وإنما يتناول هذه الصيغة من حيث وقوعها موقع المضارع وهو غير ناظر في هذا إلى كون هذا الاستعمال حقيقة أو مجازاً وإنما هو ناظر إلى ما يفيده هذا الاستعمال من المعاني وما يوحي به من الإيحاءات التي تمد النص بمزيد من الأسرار والإشارات فيزداد بذلك خصوبة ونماء ، يقول في قوله تعالى : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الممتحنة:٢): «فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعًا مثله ثم قال

---

(١) الكشاف ١١١/٢ .

(٢) المرجع السابق ٣١١/٢ .

«وودوا» بلفظ الماضي ؟ قلت : الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة كأنه قيل : وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم . يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعًا من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفارًا . وردكم كفارا أسبق المضار عندهم وأولها . لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم لأنكم بذالون لها دونه والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه»[1].

وقد يقع الماضي موقع المضارع لأن الحدث محقق الوقوع ثم يلمح الزمخشري ما في هذا التعبير من الدلالة على علو شأن المخبر . يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (الفتح:١) : «هو فتح مكة وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح ، وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في إخباره لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى»[2].

المعاني البلاغية في أبنية المشتقات :

ويقف الزمخشري عند أبنية المشتقات ويبين سر إيثار بناء على بناء ، وقيمته في المعنى . وما يوحى به في المقام . وهو كغيره من اللغويين والنحاة يرى أن زيادة المبنى دليل على زيادة المعنى . وأن هذا الارتباط بين المبنى والمعنى أمر تقره الفطرة اللغوية .

يقول في قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:٣) : «وفي «الرحمن» من المبالغة ما ليس في «الرحيم» ولذلك قالوا : رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا ، ويقولون : إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى . وقال الزجاج في الغضبان الممتلئ غضبًا : ومما طن على أذني من مُلَح العرب أنهم يسمون مركبًا من مراكبهم بالشقدف وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق ، فقلت في

---

(١) الكشاف ٤٠٩/٤ .

(٢) المرجع السابق ٢٦٢/٤، ٢٦٣.

طريق الطائف لرجل منهم : ما اسم هذا المحمل ؟ ـ أردت المحمل العراقي ـ فقال : أليس ذاك اسمه الشقدف ؟ قلت : بلى فقال : هذا اسمه الشقنداف ، فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمى»[1].

وكلمة الشقنداف التي رواها عن العربي ليست من كلامهم كما قال صاحب القاموس[2] . ولكنها دلت على جذر هذا الأصل اللغوي في فطرة الأعراب وهذا ينظر إليه ولو لم يستشهد بكلام هذا الأعرابي .

ويبين الفرق بين كلمة «مرضعة» و«مرضع» وأن في مرضعة خصوصية في المعنى لها أثرها في سياق الآية وغرضها ، فيقول في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ (الحج:٢) : «فإن قلت : لم قيل «مرضعة» دون مرضع ، قلت : المرضعة التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها للصبي ، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها ، فقيل «مرضعة» ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة»[3] .

ويلمح ما في كلمة «مطهّرة» وبنائها للمفعول من المعنى فيقول في قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ (النساء:٥٧) : «فإن قلت : هلا قيل طاهرة ؟ قلت : في «مطهرة» فخامة لصفتهن ليست في طاهرة ، وهي الإشعار بأن مطهراً طهرهن وليس ذلك إلا لله عز وجل»[4].

وقد يعبر القرآن عن الحدث باسم الفاعل في موضع وباسم المفعول في موضع آخر ، والزمخشري يشير إلى الفرق بين الموضعين وكيف اقتضى كل منهما صيغة معينة . يقول في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ ﴾ (البقرة:٢٣٣) : «فإن قلت : لم قيل «المولود له» دون الوالد ؟ قلت : ليعلم أن

---

(١) الكشاف ١/٥ .

(٢) القاموس المحيط ٣/١٦٠ مطبعة دار المأمون .

(٣) الكشاف ٣/١١٢ .

(٤) المرجع السابق ١/٨٢ .

الوالدت إنما ولدن لهم،لأن الأولاد للآباء ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات، وأنشد للمأمون بن الرشيد :

فإنمـــا أمُّهـــاتُ النـــاسِ أَوْعِيـــةٌ مُسْـــتَوْدَعاتٌ وللآبـــاءِ أَبْنَـــاءُ

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالآظآر ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله تعالى : ﴿ **وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ** ﴾ (لقمان:٣٣) [١].

ويوازن بين دلالة الفعل ودلالة اسم المفعول ليبين أن اسم المفعول أكثر توكيدًا للمعنى وإثباتًا له وتقريرًا ، ويدعو إلى الموازنة والنظر في الصورتين والرجوع إلى النفس لتعرف الفرق وتلمس المغزى ، وتلك أنجح الوسائل لفقه اللغة وذوق التراكيب .

يقول في قوله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ** ﴾ (هود:١٠٣) : « فإن قلت : لأي فائدة أوثر اسم المفعول على فعله ؟ قلت : لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه لابد من أن يكون ميعادًا مضروبًا لجمع الناس له وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت أيضًا لإثبات الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه ، ونظيره قول المتهدد : إنك لمنهوب مالك محروب قومك ، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ** ﴾ (التغابن:٩) تعثر على صحة ما قلت لك » [٢].

وأفعل التفضيل لا يدل على أن الشيء أفعل في نفسه وإنما هو أفعل بالنسبة لوقعه على النفس أو بالنسبة إلى تلقيه ، يقول في قوله تعالى : ﴿ **لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ (الزمر:٣٥) : « وأما التفضيل فإيذان بأن الشيء الذي يفرط منهم من

---

(١) الكشاف ٢١٢/١ .

(٢) المرجع السابق ٣٣٤/١ .

الصغائر والذلات المكفرة هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية ، والحسن الذي يعملون هو عند الله الأحسن لحسن إخلاصهم فيه ، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ وحسنهم بالأحسن»[1] .

ويلمح الزمخشري معنى اللين والرخاوة في الكلمات المؤنثة كما يلمح معنى الصلابة والقوة في الكلمات المذكرة .

يقول في قوله تعالى : ﴿ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ ﴾ (الزمر:٣٨) :«فإن قلت : لم قيل «كاشفات» و«ممسكات» على التأنيث بعد قوله : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ ؟ قلت : أنثهن وكن إناثًا وهن اللات والعزى ومناة قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴾ (النجم:١٩-٢١) ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة ، لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة كما أن الذكورة من باب الشدة والصلابة كأنه قال : الإناث اللاتي هن اللات والعزى ومناة ، أضعف مما تدعون لهن وأعجز ، وفيه تهكم أيضًا»[2].

ويشير إلى مثل هذا المعنى في التأنيث في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ ﴾ (الأنعام:٧٨) يقول : «فإن قلت : ما وجه التذكير في قوله «هذا ربي» والإشارة للشمس ؟ قلت : جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد كقولهم : ما جاءت حاجتك ، ومن كانت أمك ، ﴿ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ﴾ (الأنعام:٢٣) ، وكان اختيار هذه الطريقة واجبًا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ألا تراهم قالوا في صفة الله «علام» ولم يقولوا «علامة» وإن كان العلامة أبلغ احترازًا من علامة التأنيث»[3].

---

(١) الكشاف ١٩٩/٤ .
(٢) المرجع السابق ١٠/٤ .
(٣) المرجع السابق ٢٢/٢ .

أدوات الربط :

سوف نعرض هنا ملاحظاته في دلالة «ثم ، والفاء ، وحتى» ، من حروف العطف . ودلالة «إن ، وإذا ، وكلما» من أدوات الشرط . ودلالة «قد» و«ربما» ، وبعض حروف الجر .

أما «ثم» فإننا حينما نتابع تحليله لمواقعها في الكتاب العزيز يتضح لنا أصلان يرجع بمعنى «ثم» غالبًا إليهما . الأول : الاستبعاد . وذلك يكون إذا كان ما بعد «ثم» أمرًا مستبعد الوقوع بالنسبة لما قبلها ، أو بعبارة أخرى إذا كان ما قبل «ثم» من الأحداث والأفعال مهيئًا لعدم حصول ما بعدها ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ** ﴾ (السجدة:٢٢) فإن الإعراض عن آيات الله مستبعد الوقوع بالنسبة للتذكير بها . يقول الزمخشري : «ثم» في قوله : «ثم أعرض عنها» للاستبعاد ، والمعنى أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل كما تقول لصحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادًا لتركه الانتهاز ، ومنه «ثم» في بيت الحماسة :

لا يَكْشِفُ الغماءَ إلا ابنُ حُرَّة يرى غَمَراتِ المَوْتِ ثم يَزُورُها

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها»[1] .

وقد تكرر هذا في قوله تعالى : ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا** ﴾ (النحل:٨٣) يقول فيها : «فإن قلت : ما معنى «ثم» ؟ قلت : الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر»[2].

---

(١) الكشاف ٤٠٧/٢ . (٢) المرجع السابق ٤٨٨/٢ .

ومثله ما يذكره في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة:٨٤،٨٥)[١].

الثاني : بيان البعد بين الأمرين وهذا غير الاستبعاد إذ المراد أن الأمرين من جنس واحد ولكن ما بعد «ثم» أعلى مرتبة في هذا الجنس وأبلغ مما قبلها ، فليس بين الأمرين منافاة كما في الاستبعاد وإنما بينهما تفاوت وهما من جنس واحد . ومن ذلك ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (الزمر:٦) فقد قال : «فإن قلت : ما وجه قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وما يعطيه من معنى التراخي ؟ قلت : هما آيتان من جملة الآيات التي عددها دالا على وحدانيته وقدرته : تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم ، وخلق حواء من قُصَيْراه ـ بضم القاف وفتح الصاد أي أسفل أضلاعه ـ إلا أن أحدهما جعلها الله عادة مستمرة ، والأخرى لم تجر بها العادة ولم تخلق أنثى غير حواء من قُصَيْرَى رجل فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع فعطفها بـ «ثم» على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود»[٢].

ومثله ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ (الأنعام:٨) فقد قال : «ومعنى «ثم» : بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر وعدم الإنظار ، وجعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة»[٣].

---

(١) ينظر : الكشاف ١١٩/١ .
(٢) المرجع السابق ٨٨/٤ .
(٣) المرجع السابق ٥/٢ .

أما «الفاء» فإن أحسن مواقعها ما تدل فيه على المفاجأة . ولقد لحظ الزمخشري هذا وقال في قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ (الفرقان:١٩) : «هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ، ونحوها قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ ﴾ (المائدة:١٩) ، وقول القائل :

قال خُراسانَ أَقْصَى مـا يُـرادُ بنـا ثم القُفُولُ فقـد جِئْنَـا خُراسَـانا[1]

ويكرر هذا الكلام في هذه «الفاء» ويضيف إليها تحليلاً نحويًا بين فيه حقيقتها ، يقول في قوله تعالى : ﴿ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ (الروم:٥٦) : «فإن قلت : ما هذه «الفاء» وما حقيقتها ؟ قلت : هي التي في قوله : فقد جئنا خراسانًا ، وحقيقتها أنها جواب شرط يدل عليه الكلام كأنه قال : إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسانا وآن لنا أن نخلص ، وكذلك : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث أي فقد تبين بطلان قولكم»[2].

وقوله : هي التي في قوله : «فقد جئنا خراسانا» إحالة على ما ذكره في الآية السابقة إلا أنه لما سكت هناك عن بيان حقيقتها النحوية عمد هنا إليه .

وقد أشار عبد القاهر إلى هذه «الفاء» وحسن موقعها وذكر هذا البيت ، ولكن عبد القاهر كان يبسط فكرة عامة تكون هذه «الفاء» إحدى صورها الجزئية . وهذه الفكرة تعني أن معاني النحو لا تحسن في كل موضع تقع فيه وإنما تحسن حيث تصيب موقعها الأشكل بها ، وأن هذه المعاني كالأصباغ يتهدى صانعها إلى مقاديرها وكيفية مزجها وتخير مواضعها ، لهذا يكون نقش أعجب من نقش وصورة أغرب من صورة ، وعلى هذا الأساس تنظر في الشعر

---

(١) الكشاف ٣/٢١٤ .

(٢) المرجع السابق ٣/٣٨٤ .

لتعرف مدى إصابة الشاعر في استخدام معاني النحو ، فمن الشعراء من تقع الإصابة في معانيه كالأصباغ المتفرقة تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين ، وللحكم على هذا الشاعر بالإصابة والحذق ينبغي أن تتابع عدة أبيات حتى تجمع هذه المحاسن وتملأ العين منها . ومن الشعراء من تفاجئك قدراته وفحولته فترى الحسن يهجم عليك دفعة ويأتيك منه ما يملأ العين غرابة فتعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل . وكأنه في هذا يذكر خصائص الشعر الجاهلي وهو نص جيد وقد قرأته على شيخنا الأستاذ محمود شاكر وقلت له : أحسب أن عبد القاهر يشير فيه إلى خصائص الشعر الجاهلي ، فأجاب : بأن ذلك ليس بعيدًا .

ويقول عبد القاهر في معنى «الفاء» :

«ثم إنك تحتاج إلى أن تستقرئ عدة قصائد بل أن تفلى ديوانًا من الشعر حتى تجمع منه عدة أبيات ، وذلك ما كان مثل قول الأول وتمثل به أبو بكر الصديق رضوان الله عليه حين أتاه كتاب خالد بالفتح في هزيمة الأعاجم :

تمنَّانَا ليلْقَانا بقَوْم تَخَالُ بَياضَ لأَمِهُم السَّرابَا

فَقَدْ لاقَيْتَنَا فَلقِيتَ حَرْبًا عَوَانًا تَمْنَع الشيخَ الشَّرَابا

انظر إلى موضع «الفاء» في قوله : «فقد لاقيتنا فلقيت حربًا» ومثل قول العباس بن الأحنف :

قالوا خُراسانَ أَقْصَى ما يُرادُ بنا ثم القُفُولُ فقد جِئْنَا خُرَاسَانا

انظر إلى موضع «الفاء» و«ثم» قبلها[1] .

فهذه الأبيات إذن من الأبيات العالية التي إذا أنشدتها وضعت فيها اليد على شيء فقلت هذا ، وما كان كذلك فهو شعر الشاعر والكلام الفاخر والنمط الشريف .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٦١ ، ٦٢ .

ولكن عبد القاهر بعد هذا الكلام العميق في دراسة الشعر وتمييز منازله لم يزد في بيان الصفة التي هي سر الجودة على أن قال : انظر إلى موضع «الفاء». وقد تكفيه هذه الإشارة لأنه يمثل لما يذكر ، ولأنه صاحب حس تكفي معه اللمحة ، ولأن المتفهمين للأدب في زمانه قد تلفتهم هذه اللفتة إلى ما في النص من الحسن .

وقد طال أخذي من عبد القاهر لأنني أردت أن أبين في وضوح صنيع الزمخشري في هذه الجزئيات مقترنًا بصنيع الإمام عبد القاهر ، وقد لاحظنا أنه يبسط في هذه الجزئيات إشارات عبد القاهر ويفسرها ويقربها من الأذواق ، ثم يعمقها ويثبتها في الحقل البلاغي حينما يثريه بالتطبيق على نصوص مختلفة .

و«قد» : دالة على التوقع وإذا دخلت على المضارع كانت بمعنى «ربما» فوافقتها في الخروج إلى معنى التكثير . يقول في قوله تعالى : ﴿ **أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ** ﴾ (النور:٦٤) : «أدخل «قد» ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد ، وذلك أن «قد» إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى التكثير في نحو قوله :

فإن تُمْسِ مهجورَ الفِنَاء فرُبَّما أَقامَ به بعدَ الوفودِ وفُودُ

ونحو قول زهير :

أَخُو ثِقَةٍ لا تُهْلِكُ الخَمْرُ مَالَه ولكنَّه قد يُهْلِكُ المالَ نَائِلُه

وتتكرر هذه الفكرة في قوله تعالى : ﴿ **قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ** ﴾ (الأنعام:٣٣) . يقول : «قد ـ في «قد نعلم» بمعنى «ربما» الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته كقوله :

أَخُو ثِقَةٍ لا تُهْلِكُ الخَمْرُ مَالَه ولكنَّه قد يُهْلِكُ المالَ نائلُهُ[1]

---

(١) الكشاف ١٣/٢ .

ويشرح معنى التقليل في «ربما» إذا كانت مستعملة في مقام التكثير كما في قوله تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ (الحجر:٢) .

يقول في هذه الآية : «فإن قلت : فما معنى التقليل ؟ قلت : هو وارد على مذهب العرب في قولهم : لعلك ستندم على فعلك ، وربما ندم الإنسان على ما فعل ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون تقليله ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكًا فيه أو كان قليلاً لحق عليك ألا تفعل هذا الفعل لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما من الكثير ، وكذلك المعنى في الآية : لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة فبالحرى أن يسارعوا إليه فكيف وهم يودونه في كل ساعة»[١].

وللزمخشري نظرات صائبة في حروف الجر يوضح فيها دلالاتها الأدبية توضيح الناقد المتذوق وقد يمتد بصره فيحيط بالكتاب كله ليستنبط خصوصيات لهذه الحروف ، وسوف نعرض صوراً من هذه النظرات وهذه الاستنباطات .

فمن نظراته الصائبة في حروف الجر قوله في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ (سبأ:٢٤) : «فإن قلت : كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال ؟ قلت : لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه»[٢].

وقد طالت وقفته مع كلمة «على» حين تقع في موقع يمكن أن يكون غيرها مكانها فيه فمن ذلك قوله في قوله تعالى : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ (البقرة:١٤٣) : «فإن قلت : فهلا قيل : «لكم شهيداً» وشهادته لهم لا عليهم ؟ قلت : لما كان الشهيد كالرقيب

---

(١) الكشاف ٢/٤٤٣ ، ٤٤٤ .

(٢) المرجع السابق ٣/٤٥٩ .

والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ (البروج:٩) ، وقوله : ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ (المائدة:١١٧) [١] .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ ﴾ (القلم:٢١،٢٢) : «فإن قيل : «اغدوا على حرثكم» وما معنى «على» ؟ قلت : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوا عليه لا له كما تقول : عدا عليه العدو» [٢] .

والفعل يعدى مرة بـ «اللام» ومرة بـ «على» ويقف الزمخشري ليعلل هذا وليبين المطابقة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ ﴾ (هود:٤٠) : «جيء بـ «على» مع سبق الضار كما جيء بـ «اللام» مع سبق النافع قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ ﴾ (الأنبياء:١٠١) ، وقوله : ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ (الصافات:١٧١) ، ونحو قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾ ، وقول عمر رضي الله عنه : ليتها كانت كفافًا لا علي ولا ليا» [٣] .

ولام الجر يستشف منها الزمخشري معنى أدبيًّا خلابا في قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ (يونس:٢). يقول :«فإن قلت : فما معنى اللام في قوله ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ وما هو الفرق بينه وبين قولك : أكان عند الناس عجبا ؟ قلت : معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها ونصبوه علمًا لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم وليس في «عند الناس» هذا المعنى» [٤] .

فإذا كان الفعل يتعدى مرة باللام ومرة بـ «إلى» فإن الزمخشري يبين دلالة

---

(١) الكشاف ١٤٩/١ .
(٢) المرجع السابق ٤٧٣/٤ .
(٣) المرجع السابق ١٥٤/٣ .
(٤) المرجع السابق ٢٥٧/٢ .

كل في موضعه ، يقول في قوله تعالى:﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ (لقمان:٢٢) : « فإن قلت : ما له عدى بـ « إلى » وقد عدى باللام في قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ (البقرة:١١٢) قلت : معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته سالمًا لله أي خالصًا له ، ومعناه مع « إلى » أنه أسلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه »[١].

ويمتد نظره كما قلنا فيحيط بالكتاب كله فيدرك أن فعل المغفرة لا يعدى بـ « من » إلا في خطاب الكافرين ويعدى بدونها في خطاب المؤمنين ليشمل كل خطاياهم يقول في قوله تعالى : ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ (إبراهيم:١٠) : « فإن قلت : ما معنى التبعيض في قوله ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ؟ قلت : ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين كقوله : ﴿ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ (نوح:٣،٤) ، وقوله : ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ (الأحقاف:٣١) وقال في خطاب المؤمنين : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .... إلى أن قال : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (الصف:١٠-١٢) وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوي بين الفريقين في الميعاد »[٢].

وهذه لفتة إلى النظر في القرآن كله والإحاطة به وتبين مميزات أساليبه . ومثالها ما يلحظه في فعل الإيمان وأنه يعدى بـ « اللام » لغير الله تعالى ، يقول في قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة:٦١) « فإن قلت : لم عدى فعل الإيمان بـ « الباء » إلى الله تعالى وإلى المؤمنين بـ« اللام » ؟ قلت : لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به فعدى بـ« الباء » وقصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده فعدى بـ« اللام »، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ (يوسف:١٧) ما أنباه عن الباء ، ونحوه : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن

---

(١) الكشاف ٣٩٤/٢ .

(٢) المرجع السابق ٤٢٣/٢ .

قَوْمِهِۦ ﴾ (يونس:٨٣) ، ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ (الشعراء:١١١) ، ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ (طه:٧١) [١].

ثم يقرر هذه القاعدة في قوله تعالى : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ فيقول : « واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله تعالى ، كقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الكشاف : ٣/٦٠).

وأداتا الشرط « إن» و« إذا» يقرر الزمخشري فيهما هذا المعنى المشهور وهو أن « إن» للشرط المشكوك فيه و« إذا» للشرط المتيقن ، ويجتهد الزمخشري ليبين هذه الدلالة وإصابتها للغرض والمقام ويفسر في ضوئها خصوصيات الكلمات في التركيب . يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ (الأعراف:١٣١) : « فإن قلت : كيف قيل ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ بـ « إذا» وتعريف الحسنة ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ بـ « إن» وتنكير السيئة ؟ قلت : لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه أما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها ، ومنه قول بعضهم : قد عددت أيام البلاء فهل عددت أيام الرخاء»[٢].

وقد يرمز الذكر الحكيم باستعمال « إن» إلى شيء مما كانت تحتويه الحياة العربية من أخلاق وعادات في شيء من اللوم والتعنيف ثم نجد الزمخشري يتنبه إلى هذا وينبهنا إليه وهو لم يتجاوز شرح المعنى الأصلي للأداة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ (النور:٣٣) : « فإن قلت : لم أقحم قوله « إن أردن تحصنا ؟ قلت : لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن وأمر الطيعة المواتية للبغاء لا يسمى مكرها

---

(١) الكشاف ٢/٢٢٣ .

(٢) المرجع السابق ٢/١١٣-١١٤ .

ولا آمره إكراهًا ، وكلمة « إن » وإيثارها على كلمة « إذا » إيذان بأن الباغيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن »[1].

وفي ضوء هذه الدلالة لـ « إن » و« إذا » يرفض أقوال بعض المفسرين للآية كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ (الإنسان:٢٨) قال : « بدلنا أمثالهم في شدة الأسر يعني النشأة الأخرى وقيل : معناه بدلنا غيرهم ممن يطيع ، وحقه أن يجيء بـ« إن » لا بـ« إذا » كقوله : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ (محمد:٣٨) ، ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ (النساء:١٣٣)[2].

وفي ضوء هذه الدلالة يعيب الشعر وينقد الشعراء يقول : « وللجهل بموقع « إن » و« إذا » يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب فيغلطون ، ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسان كيف أخطأ بهما الموقع في قوله يخاطب بعض الولاة ، وقد سأله حاجة فلم يقضها ثم شفع له فيها فقضاها :

ذُمِمْتَ ولم تُحْمَد وأَدْرَكْتُ حَاجَتِي ... تَولَّى سواكُم أَجْرَهَا واصْطِنَاعها
أَبَى لَك كَسْبَ الحَمْد رأيٌ مُقَصِّرٌ ... ونَفْسٌ أَضَاقَ اللهُ بالخَير بَاعَها
إذا هي حَثَّتْهُ على الخيرِ مَرَّةً ... عَصَاها وإن هَمَّت بَشرٍّ أَطَاعَها

فلو عكس لأصاب »[3].

وقد تستعمل « إن » في الشرط المقطوع به وحينئذ تخرج عن دلالتها الأصلية ، والزمخشري يكشف سر هذا الخروج ومغزاه ، يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ (البقرة:٢٤) : « فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهلا جيء بـ « إذا » الذي للوجوب دون « إن » الذي للشك ؟ قلت : فيه وجهان أحدهما : أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم ..

---

(١) الكشاف ١٨٩/٣ .
(٢) المرجع السابق ٥٤٠/٤ .
(٣) بغية الإيضاح ١٧٨/١ ، ١٨٩ .

والثاني : أن يتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه»[1].

وظاهر أن الوجه الأول فيه بيان أن الأداة لم تخرج عن استعمالها الأصلي لأنها جاءت على وفق ما يعتقدون . أما الوجه الثاني فإنه بيان لسر استعمالها في غير موضعها لمعنى بلاغي هو التهكم بهم وبقدراتهم .

وقد يكون في هذه الطريقة معنى تأكيد الشرط وتقريره فضلاً عن أنه مقطوع به ، يقول في قوله تعالى : ﴿ **أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ** ﴾ (الزخرف:٥) : « فإن قلت : كيف استقام معنى « إن» الشرطية وقد كانوا مسرفين على البت ؟ قلت : هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفني حقي ، وهو عالم بذلك ، ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجهالا له»[2].

وقد كرر هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الشعراء:٥١) ، حيث يقول : « وقرئ « إن كنا» بالكسر وهو من الشرط الذي يجيء به المدل بأمره المتحقق لصحته وهم كانوا متحققين أنهم أول المؤمنين ، ونظيره قول العامل لمن يؤخر جُعله : إن كنت عملت لك فوفني حقي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى** ﴾ (الممتحنة:١) مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك»[3].

وقد تستعمل « إن» في الشرط المقطوع بعدمه ويبين الزمخشري أيضًا سر استعمالها وتفسيره لموقعها له أصل واحد كما في بيان استعمالها في الشرط

---

(١) الكشاف ٧٦/١ .
(٢) المرجع السابق ١٨٦/٤ .
(٣) المرجع السابق ٢٤٧/٢ .

المقطوع به ، يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ (البقرة:١٣٧) : « فقيل : فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير أي فإن حصلوا دينًا آخر مثل دينكم مساويًا له في الصحة والسداد فقد اهتدوا ، وفيه أن دينهم الذي هم عليه وكل دين سواه مغاير له غير مماثل لأنه حق وهدى وما سواه باطل وضلال ، ونحوه قولك للرجل الذي تشير عليه : هذا هو الرأي الصواب فإن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به ، وقد علمت ألا أصوب من رأيك ولكنك تريد تبكيت صاحبك وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراءه »[1].

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُواْ ﴾ (البقرة:٢١٧) : « إن استطاعوا : استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوه : إن ظفرت بي فلا تبق علي ، وهو واثق بأنه لا يظفر به »[2].

وواضح أن هذا البحث في هاتين الأداتين قد انتقل إلى كتب المتأخرين ولم يزيدوا شيئًا ذا غناء .

التعريف :

وله في التعريف بـ « ال » واسم الموصول واسم الإشارة والإضافة ملاحظات بلاغية يلمحها من دلالة هذه الطرق ، وهذه الملاحظات البلاغية وأمثالها جزء مهم في الدراسة البلاغية ، نعم قد يشوب هذا الدرس شيء من البحث النحوي ، ولكنا لا نرى ضيراً في هذا لأننا إذا أردنا أن نستشف ما وراء هذه الأدوات من المعاني فإنه من الضروري أن نطرق هذه الأصول النحوية ولكن لنتجاوزها لا لنقف عندها .

واللام كما يلاحظ الزمخشري تدل على العهد أو الجنس وتتكرر هذه الدلالة في مواطن كثيرة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ

---

(١) الكشاف ١٤٦/١ .

(٢) المرجع السابق ١٩/١ .

﴿ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ (البقرة:١٣) : «واللام في «الناس» للعهد أي كما آمن رسول الله ﷺ ومن معه ، أو هم ناس معهودون كعبد الله بن سلام وأشياعه لأنهم من جلدتهم ومن أبناء جنسهم ، أي كما آمن أصحابكم وإخوانكم أو للجنس ، أي كما آمن الكاملون في الإنسانية ، أو جُعِل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل»[(١)].

ثم إن «لام الجنس» لها مدلولات ولها أحكام وقد أغرق المتأخرون هذا البحث في الدراسات الكلامية وهو جزء من مباحث أصول الفقه ، وحينما ننعم النظر في هذه الدراسة تَتَبَيَّنُ لنا أهميتها العلمية الدالة على عبقرية هؤلاء العلماء وموهبتهم في التحليل والمناقشة والاستنتاج ولكننا واثقون من عدم جدوى هذه الدراسة في تربية الذوق وتحليل النص . وكان الزمخشري رحمه الله يلمح الناحية البلاغية ولا يتغلغل فيما وراءها من أحكام .

فهذه اللام الداخلة على المفرد والداخلة على الجمع قد استغرقت جهدًا كبيرًا من الدارسين وهم يحاولون تحديد استغراق المفرد واستغراق الجمع . والزمخشري يمس هذا مسًّا أدبيًّا خفيفًا حينما يقول في قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (البقرة:٢٥) :

«والصالحات كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة واللام للجنس فإن قلت : أي فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد وبينها داخلة على الجمع ؟

قلت : إذا دخلت على المفرد كان صالحًا لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه . وإذا دخلت على المجموع صلح أن يراد به جميع الجنس وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه «لأن وزانه في تناول الجمعية في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية ، والجمعية في جمل الجنس لا في وحدانه»[(٢)].

---

(١) الكشاف ٤٩/٣ وينظر ٤٢/١، ١٥٣ .

(٢) المرجع السابق ٧٩/١ .

ويناقش هذا الموضوع في موطن آخر في قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٨٥) قال : «وقرأ ابن عباس «وكتابه» يريد القرآن أو الجنس وعنه الكتاب أكثر من الكتب فإن قلت : كيف يكون الواحد أكثر من الجمع ؟ قلت : لأنه إذا أريد بالواحد الجنس والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء فأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من المجموع»[١] .

ولست أرى فرقًا بين هذين النصين فكلاهما يقرر أن الواحد إذا أريد به الجنس صح أن يراد به آحاده أي الإفراد ، وأن الجمع إذا أريد به الجنس صح أن يراد به آحاده أي المجموع ، لأن الجمعية في جمل الجنس لا في وحدانه . ولهذا لا نوافق العلامة سعد الدين حينما يقرر أن الزمخشري أورد هذا توجيهًا لكلام ابن عباس رضي الله عنه ولم يقصد أنه مذهبه[٢] .

وذلك لأننا رأينا الزمخشري يذكر نفس الفكرة في موطن آخر ليس فيه كلام ابن عباس وقد تردد بهاء الدين السبكي في نسبة هذا الكلام لابن عباس وقال : ولو ثبت أمكن تأويله على المعنى الثالث ويكون معنى كونه أكثر أن دلالته على الاستغراق أقوى كما سبق ولا يمتنع أن يقال : مال زيد أكثر من مال عمرو ، إذا كان مال زيد أجل وأبرك ، وإن استويا في الكلمة[٣] «ويقصد بالمعنى الثالث وبما سبق قوله «لا شك أن قولنا استغراق المفرد أشمل ، تارة يعني به أن المفرد دل على فرد زائد لم يدل عليه الجمع ، وتارة يعني به أن مجموع جزئيات المفرد أكثر عددًا من مجموع جزئيات الجمع ، وتارة يعني به أن دلالة المفرد على الشمول أقوى من دلالة الجمع عليه»[٤].

وحمل كلام ابن عباس على هذا المعنى الثالث بعيد لأن كلمة «أكثر» تدل بمادتها على الكثرة ولأنها في الكتاب والكتب غيرها في مال زيد وعمرو كما

(١،٢) الكشاف ١/٢٥٣ ، ٢٥٤ .
(٣) المطول ينظر ص ٨٦ .
(٤) شروح التلخيص ١/٣٤٠ .

ذكر إذ يتأتى هناك معنى أجل وأبرك ولا يتأتى هنا . وتفسير كلام ابن عباس أحسن تفسير هو ما ذكره الزمخشري وهو مذهبه بدليل ذكره كما قلنا في آية أخرى . وقد اعتمد على هذا في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ (الحاقة:١٧) حيث يقول : «فإن قلت : ما الفرق بين قوله «والملك» وبين أن يقال والملائكة ؟ قلت : الملك أعم من الملائكة ، ألا ترى أن قولك : ما من ملك إلا وهو شاهد ، أعم من قولك : من الملائكة»[١]، ولا فرق بين قوله : والملك أعم من الملائكة وقول ابن عباس : والكتاب أكثر من الكتب .

نعم قد ذكر الزمخشري دلالة الجمع المعرف على كل واحد من الأفراد لا من الجموع كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٤) قال الزمخشري : «يجوز أن تكون للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورين»[٢]. وقال : «يقال : فلان يركب الخيل ويلبس البرود وما له إلا فرس واحد وبرد فرد»[٣].

وقال سعد الدين : «إفادة الجمع المحلى بـ «اللام» تعلق الحكم بكل فرد مما هو مقرر في علم الأصول والنحو ، وكلامه في الكشاف أيضًا مشحون به حيث قال في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٤) : أنه جمع ليتناول كل محسن ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:١٠٨) : أنه نكر «ظلما» وجمع «العالمين» على معنى ما يريد شيئًا من الظلم لأحد من خلقه ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء:١٠٥) : أي ولا تخاصم على خائن قط ، وفي قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة:٢) : أنه جمع ليشمل كل جنس مما سمى بالعالم يعني لو أفرد لتوهم أنه إشارة إلى هذا العالم المحسوس المشاهد فجمع ليفيد الشمول والإحاطة»[٤] .

---

(١) شروح التلخيص ١/٣٤٠ .
(٢) الكشاف ٤/٤٨٠ .
(٣) المرجع السابق ١/٣٢٠ .
(٤) المرجع السابق ١/٣٤٠ .

وقال ابن يعقوب : «قد نص الأئمة على أن الجمع المحلى يعم الحكم فيه كل فرد وهو في ذلك أقوى من المفرد ، فإذا قيل : إني أحب المسلمين إلا زيدًا ، فالمراد كل فرد لا كل جمع وإلا قيل في الاستثناء . إلا الجمع الفلاني ، وليست دلالته في ذلك أضعف من قولنا : إني أحب المسلم ، وقد صرح بذلك النحويون وأهل اللغة وصرح به أئمة التفسير في كل ما وقع في القرآن العزيز من هذا القبيل نحو : ﴿ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة:٣٣) ، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة:٣١) ، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ (البقرة:٣٤) ، ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وغير ذلك مما لا ينحصر»[1].

وابن يعقوب وإن لم يصرح بأن دلالة الجمع المحلي بـ «ال» على مفرداته مذهب الزمخشري وغيره فإن ذكر أئمة اللغة والنحو والتفسير وذكر الآيات التي ذكرها يدلنا على أنه فهم هذا من كلام الزمخشري كما فهمه من كلام غيره . والعلامة سعد الدين يكرر هذه الفكرة ويشير إلى أنها مذهب الزمخشري وغيره فيقول : «فالقول بأن الجمع يفيد تعلق الحكم بكل واحد من الأفراد مثبتًا كان أو منفيًّا مما قرره الأئمة وشهد به الاستعمال وصرح به صاحب الكشاف في غير موضع فلا وجه لرفض جميع ذلك بكلام صدر عن صاحب المفتاح»[2].

فقد ثبت من كل ما ذكرنا أن الزمخشري يقرر دلالة الجمع المحلي بـ«اللام» على كل فرد من أفراده بل وقد يطلق ويراد به فرد واحد كما ذكر في البرود والخيل ، وثبت أن الأئمة فهموا هذا من كلامه وقرروه وثبت أيضًا أن الزمخشري ذكر في آية «الصالحات» وفي رواية ابن عباس وفي آية «الملك» أن الجمع المحلى بـ «اللام» صالح لأن يتناول جميع الجنس وأن يتناول بعضه لا إلى الواحد منه وقد صرح بهذا في غير لبس وفي غير غموض ، وبهذا نرى للزمخشري رأيين مختلفين في مسألة واحدة اللهم إلا إذا لجأنا إلى التأويل

---

(١) المطول ص ٨٦ .

(٢) شروح التلخيص ١/٣٤٠ .

وحمل كلامه على خلاف ظاهره ، ومما نرجح به ما ذهبنا إليه أن سعد الدين لما لحظ اختلافًا بين كلام الزمخشري في أكثر الآيات وكلامه في توجيه ما روي عن ابن عباس قال : «هذا الكلام مبني على ما هو المعتبر عند البعض من أن الجمع المعرف بـ «اللام» بمعنى كل جماعة أورده توجيهًا لكلام ابن عباس ولم يقصد أنه مذهبه بدليل أنه صرح بخلافه»[(١)].

فالزمخشري صرح بخلاف ما ذكره توجيهًا لكلام ابن عباس وهذا صحيح أما أنه ليس مذهبه فهذا ما لا نوافق عليه كما قلنا ، وقد لاحظنا أن الزمخشري ذكر هذه الفكرة قبل تعرضه لحديث ابن عباس إذا صح ما نتوهمه من أن الزمخشري بدأ في تفسير الفاتحة ثم ما يليها من السور فقد ذكر الفكرة أولا ووضحها في سورة البقرة (في آية ٢٥) وذكر كلام ابن عباس في السورة نفسها (في آية ٢٨٥) هذا وقد كثرت إشارات الزمخشري إلى أن «لام الجنس» تفيد معنى الكمال في الصفة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ** ﴾ (البقرة:١٣) : «أي كما آمن الكاملون في الإنسانية ، أو جعل المؤمنين كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل»[(٢)] .

وقال في : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾ (النساء:١٥١) : «أي الكاملون في الكفر»[(٣)] ، وفي قوله تعالى : ﴿ **وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (المائدة:٤٣) : «أي بالكاملين في الإيمان»[(٤)].

ويشير إلى معنيين للتعريف بـ «اللام» لا نجد صعوبة في أن نرجع بكلامه فيهما إلى كلام عبد القاهر الجرجاني وقد نبه بعضهم إلى ذلك ، يقول في قوله تعالى : ﴿ **وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴾ (البقرة:٥) : «والتعريف في «المفلحون» للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفحلون في الآخرة ،

---

(١) المطول ص ٨٦ .
(٢) الكشاف ٤٩/١ .
(٣) المرجع السابق ٤٥٤/١ .
(٤) المرجع السابق ٤٩٤/١ .

كما إذا بلغك أن إنسانًا قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو ؟ فقيل : زيد التائب ، أي هو الذي أخبرت بتوبته . أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة ، كما تقول لصاحبك : هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الإقدام ؟ إن زيدًا هو هو » والوجه الأول مأخوذ من كلام الإمام عبد القاهر في حديثه عن الفرق بين : زيد منطلق ، وزيد المنطلق . حيث يقول : « إذا قلت : زيد المنطلق ... فأنت في حديث انطلاق قد كان وعرف السامع كونه إلا أنه لم يعلم أمن زيد كان أم من عمرو ، فإذا قلت : المنطلق ، أزلت عنه الشك وجعلته يقطع بأنه كان من زيد بعد أن كان يرى ذلك على سبيل الجواز »[1].

فالتعريف يشير إلى أن السامع قد عرف الحدث وبلغه أمره إلا أنه شاك في الفاعل من هو ؟ فقيل له : زيد المنطلق ، بتقديم الفاعل الذي يشك فيه والحكم عليه بالحدث المعرف ، وكلام الزمخشري لا يخرج عن هذا ، لأن المخاطب قد بلغه أمر الحدث ـ أي فلاح قوم ـ ولكنه لا يعرف صاحب هذا الوصف فقيل له : إن المتقين هم المفلحون ، أي الذين بلغك أنهم يفلحون . والمعنى الثاني أشار إليه الزمخشري في تعريف «المفلحون» مأخوذ من قول عبد القاهر : « واعلم أن للخبر المعرف بالألف واللام معنى غير ما ذكرت لك وله مسلك ثَمَّ دقيق ولمحة كالخلس يكون المتأمل عنده ـ كما يقال ـ يعرف وينكر وذلك قولك : هو البطل المحامي ، وهو المتقي المرتجى ، وأنت لا تقصد شيئًا مما تقدم ... ولكنك تريد أن تقول لصحبك : هل سمعت بالبطل المحامي ؟ وهل حصلت معنى هذه الصفة وكيف ينبغي أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال ذلك له وفيه ؟ فإن كنت قبلته عامًّا وتصورته حق تصوره فعليك صاحبك واشدد به يدك فهو ضالتك وعنده بغيتك ، وطريقه كطريق قولك : هل سمعت بالأسد وهل تعرف ما هو ؟ فإن كنت تعرفه فزيد هو بعينه »[2].

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠ .

ولست في حاجة إلى توضيح ما بين الكلامين من صلة فإن كلام الزمخشري لا يزيد عن أن يكون تلخيصًا لهذا الكلام وقد تنبه إلى هذا السيد الشريف في حاشيته[1].

على أن من المتأخرين من ذهب إلى أن كلام الزمخشري يفيد دلالة ضمير الفصل على قصر المسند إليه واحتجوا لذلك بقوله : «فهم لا يعدون تلك الحقيقة» وقد نقض سعد الدين هذا الفهم وبين صلة هذا الكلام بكلام عبد القاهر على ما ذكرنا[2].

وصلة الموصول يجب أن تكون معلومة عند المخاطب لأنها معرِّفة ولا يعرف بالمجهول ، يقول في قوله تعالى : ﴿ **فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ** ﴾ (البقرة:٢٤) : «فإن قلت : صلة «الذي» و«التي» يجب أن تكون قصة معلومة للمخاطب فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة ؟ قلت : لا يمتنع أن يتقدم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب أو سمعوه من رسول الله ﷺ أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى في سورة التحريم : ﴿ **نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ** ﴾ (التحريم:٦)[3].

ويناقش الزمخشري أسرار التعبير باسم الموصول مناقشة يتصل بعضها بهذه القاعدة ـ أي ضرورة سبق العلم بالصلة ـ وله في هذه المناقشات لمحات أدبية صافية ، يقول في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ** ﴾ (الأنعام:١٥٠) : «فإن قلت : هلا قيل : قل هلم شهداء يشهدون أن الله حرم هذا ؟ ، قلت : المراد أنهم يحضرون شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم ... وجيء بـ«الذين» للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم

---

(١) حاشية السيد الشريف على هامش الكشاف ١/١١٣، وحاشيته على المطول ص١٤٠.
(٢) المطول ص ١٤٠ وينظر : حاشية السيد أيضًا هامش المطول .
(٣) الكشاف ١/٧٧ .

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ . ولو قيل : هلم شهداء يشهدون لكان معناها هاتوا أناسًا يشهدون بتحريم ذلك ، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق وذلك ليس بالغرض ويناقضه قوله تعالى : ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾[1].

وقد تكون في جملة الصلة من المعاني ما يحرص المتكلم على إبرازها وتوضيحها فيعدل إلى التعريف بالصلة دون غيرها . والزمخشري ينبه إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ ﴾ (المائدة:١٤) يقول : « فإن قلت : فهلا قيل من النصارى ؟ قلت : لأنهم سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله وهم الذين قالوا لعيسى : نحن أنصار الله ، ثم اختلفوا بعد نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصارًا للشيطان »[2].

فالصلة هنا تشير إلى ذم هؤلاء القوم بنقضهم ما ألزموا به أنفسهم من نصرة دين الله لأنهم هم الذين قالوا إنا نصارى .

ومن العناية بإبراز ما في الصلة من المعاني لأنها ذات قيمة في سياق الكلام والمراد منه ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ (يونس:١٠٤). يقول الزمخشري : « وإنما وصفه بالتوفي ليريهم أنه الحقيق بأن ، يخاف ويتقى فيعبد دون ما لا يقدر على شيء »[3].

ومن الموصولات ما ترجع روعته في التعبير إلى ما يكتنف دلالته من الغموض ، والزمخشري يقف عند هذه الأسماء ويسجل ما وجده في نفسه من آثارها ، يقول في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ (النجم:١٦) : « ما يغشى : تعظيم وتكثير لما يغشاها فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله أشياء لا يكتنهها النعت ولا يحيط بها الوصف »[4].

---

(١) الكشاف ٦١/٢ .
(٢) المرجع السابق ٤٧٩/١ .
(٣) المرجع السابق ٢٩٣/٢ .
(٤) المرجع السابق ٣٣٥/٤ .

وهذا الغموض قد يلمح فيه الزمخشري معنيين متناقضين ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾ (طه:٦٩) : «وقوله ﴿ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ ولم يقل «عصاك» جائز أن يكون تصغيرًا لها أي لا تبالي بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها . وجائز أن يكون تعظيمًا لها أي لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فإن في يمينك شيئًا أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها»[١].

والعلامة ابن المنير يصيب حينما يربط بين ما ذكره الزمخشري من معنى التصغير للعصا وبين مذهب العرب في سوق المعاني وتأكيدها وطريقهم في تحليلها وتفصيلها يقول : «ولأصحاب البلاغة طريق في غلو المدح بتعظيم جيش عدو الممدوح ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه فصغر الله أمر العصا ليلزم منه تصغير كيد السحرة الداحض بها في طرفة عين»[٢].

وقد يعدل القرآن الكريم إلى كلمة «ما» دون «من» حين يتحدث عن العقلاء . والزمخشري يحاول كشف ما وراء هذا العدول مبينًا الدلالة الأدبية التي توحي بها معنى الوصفية في «ما» يقول في قوله تعالى: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ (البلد:٣) : «فإن قلت : هلا قيل : ومن ولد ؟ قلت : فيه ما في قوله : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ (آل عمران:٣٦) أي بأي شيء وضعت يعني موضوعًا عجيب الشأن»[٣].

---

(١) الكشاف ٥٨/٣ .

(٢) حاشية ابن المنير على هامش الكشاف ٥٨/٣ .

(٣) الكشاف ٦٠٢/٢ .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٥-٧) : « والوجه أن تكون موصولة وإنما أوثرت على « من » لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل : والسماء والقادر العظيم الذي بناها ، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها ، وفي كلامهم « سبحان ما سخركن لنا »[١].

واسم الإشارة قد يفيد توكيد استحقاق المبتدأ للخبر وذلك إذا تقدمه تعديد صفات للمبتدأ كل صفة منها ترشحه لاستحقاق هذا الخبر . وهذا المعنى واضح في كتب المتأخرين بل قد أخذ بلفظه ومعناه من كتاب الكشاف .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة:٥) : « وفي اسم الإشارة الذي هو « أولئك » إيذان بأن ما يرد عقيبه فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عددت لهم كما قال حاتم : « ولله صعلوك » ثم عدد خصالا فاضلة ثم عقب تعديدها بقوله :

فذلكَ إنْ يَهْلِك فحُسْنى ثناؤُه وإن عاشَ لم يَقْعُد ضَعِيفًا مُذَمّمَا[٢]

وقد يرمز اسم الإشارة إلى تصوير المعاني حتى تكون كأنها مرئية فيشير إليها وذلك في مواقف التأكيد والتقرير . يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ (الكهف:٧٨) : « فإن قلت : « هذا » إشارة إلى ماذا ؟ قلت : قد تصور فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ﴾ (الكهف:٧٦) ، فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه كما تقول : هذا أخوك ، فلا يكون « هذا » إشارة إلى غير الأخ »[٣].

---

(١) الكشاف ٦٠٥/٤ .
(٢) المرجع السابق ٣٤/١ .
(٣) المرجع السابق ٥٧٨/٢ .

وقد يشير اسم الإشارة إلى معنى التعظيم والتنويه سواء أكان للقريب أم للبعيد كما أنه قد يشير إلى معنى التحقير والتصغير . والسياق هو الذي يكشف عن هذه الإشارات ويبرزها وله في هذا كلام جيد .

فمن دلالة اسم الإشارة على التعظيم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ﴾ (النمل:٩١) يقول الزمخشري : « وأشار إليها إشارة تعظيم وتقريب دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه »[١] ..

ومنه ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ (يوسف:٣٢) : « ولم تقل « فهذا » وهو حاضر رفعًا لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به ، وربئا بحاله واستبعادًا لمحله »[٢] .

ومن دلالة اسم الإشارة على التحقير والإهانة ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ﴾ (المدثر:٣١) يقول : « استرذال واستحقار كما قالت عائشة رضي الله عنها في عبد الله بن عمرو بن العاص : يا عجبا لابن عمرو هذا »[٣] .

والإضافة قد تفيد تعظيم المضاف وتفخيمه كما في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل:١) يقول الزمخشري : « وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم ، لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه »[٤].

وكما في قوله تعالى : ﴿ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ (الأعراف:٧٣) : « فإنها إنما أضيفت إلى اسم الله تعظيمًا وتفخيمًا لشأنها وأنها جاءت من عنده لكونه من غير فحل وطروقة آية من آياته »[٥].

---

(١) الكشاف ٣٠٦/٣ .
(٢) المرجع السابق ٣٦٤/٢ .
(٣) المرجع السابق ٨٨/١ .
(٤) المرجع السابق ٣٧٣/٣ .
(٥) المرجع السابق ٥٩/٢ .

وقد تفيد توبيخ المخاطب والاستهزاء به كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ﴾ (النحل:٢٧) يقول : «شركائي : على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم»[١] ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ (الكهف:٥٢) يقول : «وإضافة الشركاء إليه على زعمهم توبيخًا لهم»[٢].

وقد توحي الكلمة المضافة بما يوقظ النفس والوجدان ، وينبه الفطرة ويستثيرها ، ويلفتها إلى نفسها فتأتي لأمر الله طوعًا ، والزمخشري يتنبه إلى هذا ، يقول في قوله تعالى : ﴿ لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا ﴾ (البقرة:٢٣٣) .

«فإن قلت : كيف قيل «بولدها» ؟ قلت : لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافًا لها عليه ، وأنه ليس بأجنبي منها ، فمن حقها أن تشفق عليه وكذلك الوالد»[٣] .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾ (الأعراف:١٥٠) : «وقيل : كان أخاه لأبيه وأمه ، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحدة ، وذلك أدعى إلى العطف والرحمة ، وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها ، ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها»[٤] .

وقد تفيد الإضافة معنى الاستحقاق أي ما يستحقه المضاف إليه من معنى المضاف ، وما يستوجبه ، وهذا المعنى في الإضافة له قيمته البلاغية . والزمخشري ينبه إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (الزلزلة:١) يقول : «فإن قلت : ما معنى زلزالها بالإضافة ؟ قلت : معناه زلزالها

---

(١) الكشاف ٤٦٩/٢ .
(٢) المرجع السابق ٥٦٨/٢ .
(٣) المرجع السابق ٢١٣/١ .
(٤) المرجع السابق ١٢٧/٢ .

الذي تستوجبه في الحكمة ومشيئة الله ، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده ، ونحوه قولك : أكرم التقي إكرامه ، وأهن الفاسق إهانته ، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة ، أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن»[1].

التنكير :

وفي بحثه لمفردات القرآن يقف عند كثير من النكرات لبحث سر تنكيرها وما أفاده من معنى ، وباستقصائنا لتفسيره ، وتتبعنا لكلماته ، نستطيع أن نثبت هنا المعاني الأساسية التي يدور حولها معاني التنكير كما يتصورها الزمخشري أو كما يصورها تفسيره ، وسوف يتضح لنا أن هذه المعاني وأمثلتها كانت مادة أساسية في بلاغة المتأخرين ، وأنهم اعتمدوا عليه في هذا الأمر اعتمادًا كبيرًا .

فالتنكير قد يفيد معنى الإبهام ، والإبهام من عناصر الإثارة في الكلام . وقد كثر حديث الزمخشري عن الإبهام وأثره في النفس . وقد أشار إلى هذا في تأملاته لمعاني الموصولات كما أشرنا . يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ (البقرة:٥) : «ونكر «هدى» ليفيد ضربًا مبهمًا لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره كأنه قيل : على أي هدى ، كما تقول : لو أبصرت فلانا لأبصرت رجلا . وقول الهذلي :

فَـــلا وأَبِي الطَّيْـــرِ المُربَّـــةِ بالضُّـــحَى على خَالِدٍ لقد وَقَعْتِ على لَحْـــم[2]

ويلمح هذا المعنى ويصيب غاية الإصابة في قوله تعالى : ﴿ **ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا** ﴾ (يوسف:٩) يقول : «أرضًا منكورة مجهولة بعيدة عن العمران وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف . ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة»[3] .

---

(١) الكشاف ٦٢٤/٣ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ٣٥/١ .
(٣) المرجع السابق ٣٤٨/٢ .

وعبارة الزمخشري هنا مصورة لنفوس الأخوة وهم يتآمرون وذلك بلمحه معنى التنكير .

وكلمة «بعض» كلمة مبهمة في مدلولها ولهذا نجد لها وقعًا في استعمالات القرآن وفي كلام الفحول ، والزمخشري ينبه إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ (المائدة:٤٩) «يعني بذنب التولي عن حكم الله وإرادة خلافه فوضع «ببعض ذنوبهم» موضع ذلك وأراد أن لهم ذنوبًا جمة كثيرة العدد وأن هذا الذنب مع عظمه بعض . وواحد منها ، أو هذا الإبهام لتعظيم التولي واستسرافهم في ارتكابه ، ونحو البعض في هذا الكلام ما في قول لبيد : «أو يَرْتَبط بَعْضَ النفوس حمامُها» أراد نفسه وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام كأنه قال : نفسًا كبيرة ، ونفسا أي نفس ، ويتكرر هذا في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ (البقرة:٢٥٣) ، يقول : «والظاهر أنه أراد محمدًا ﷺ لأنه هو المفضل عليهم» .

«وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس ويقال للرجل : من فعل هذا ؟ فيقول : أحدكم أو بعضكم ، يريد الذي تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال فيكون أفخم من التصريح وأنوه بصاحبه ، وسئل الحطيئة عن أشعر الناس فذكر زهيرًا والنابغة ثم قال : ولو شئت لذكرت الثالث ـ أراد نفسه ـ ولو قال : ولو شئت لذكرت نفسي ، لم يفخم أمره»[1] .

وقد يشير التنكير إلى النوعية أي إلى نوع من أنواع الاسم النكرة .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ (البقرة:٧) : «ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعًا من الأغطية غير ما يتعارفه الناس وهو غطاء

---

(١) المرجع السابق ١/٢٢٦ .

التعامي عن آيات الله ، ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله »[1] ويتكرر ذكره لإفادة التنكير هذا المعنى في آيات كثيرة[2] .

وقد يفيد التنكير معنى التعظيم أي وصف المعنى بأنه عظيم ، يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا ﴾ (الأعراف:١١٣) : « والتنكير للتعظيم كقول العرب : إن له لإبلا وإن له لغنما ، يقصدون الكثرة »[3] ، ويتكرر هذا في مواطن كثيرة[4] .

وقد يفيد معنى التقليل كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ (الحاقة:١٢) . يقول الزمخشري : « فإن قلت : لم قيل « أذن واعية » على التوحيد والتنكير ؟ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم . وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله ، وأن ما سواها لا يبالى بهم بالة ، وإن ملأوا ما بين الخافقين »[5] .

ويذكر هذا في قوله تعالى : ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴾ (طه:٢٧) ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ (الحشر:١٨) ويبين أن تنكير العقدة وتنكير النفس لغرض التقليل[6] .

وقد يفيد التنكير معنى التكثير ، والزمخشري يبين وجه هذه الدلالة وكيف يكون التنكير وهو في الأصل دال على الوحدة مفيداً لمعنى التكثير . يقول في قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴾ (التكوير:١٤) : « فإن قلت : كل نفس تعلم ما أحضرت كقوله تعالى : ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا ﴾ (آل عمران:٣٠) ، لا نفس واحدة ، فما معنى قوله ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ ﴾ ؟

---

(١) الكشاف ٤١/١ .
(٢) المرجع السابق ٢٤/١، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ، ١٩٥/٢، ٢٠٠ .
(٣) المرجع السابق ١١٠/٣ .
(٤) المرجع السابق ٢٤١/١، ٤٥٧ .
(٥) المرجع السابق ٤٨١/٤ .
(٦) المرجع السابق ٤٨/٣، ٤٠٦/٤ .

قلت : هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ (الحجر:٢) ومعناه «كم»، وأبلغ منه قول القائل : «قد أَتْرُك القِرْنَ مُصْفَرًا أنامله» «وتقول لبعض قواد العساكر: كم عندك من الفرسان ؟ فيقول : رب فارس عندي ، أو : لا تعدم عندي فارسًا ، وعنده المقانب وقصده بذلك التمادي في تكثير فرسانه ولكنه أراد إظهار براءته من التزيد وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا أن يتزيد فجاء بلفظ التقليل ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين»[(١)].

ويكرر هذا في قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر:٥٦) : «فيجوز أن يكون المراد بها بعض الأنفس ، وهي نفس الكافر ، أو أن يراد بها نفس متميزة بلجاج في الكفر ، أو أن يراد التكثير ، كما قال الأعشى :

وَربُّ بَقِيعٍ لو هَتَفْتُ بحوِّه أتاني كريمٌ يَنْفضُ الرأسَ مُغْضبًا

وهو يريد أفواجًا من الكرام ينصرونه لا كريمًا واحدًا ، ونظيره : رب بلد قطعت ، ورب بطل قارعت ، وقد اختلس الطعنة ، ولا يقصد إلا التكثير»[(٢)].

وقد يفيد التنكير معنى قلة الالتفات ، وأن المنكر أمر تائه يغفل الناس عنه ، ولا يلتفتون إليه ، يقول في قوله تعالى : ﴿ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴾ (سبأ:٧) يقول : «فإن قلت : كان رسول الله ﷺ مشهورًا علمًا في قريش وكان إنباؤه بالبعث شائعًا عندهم ، فما معنى قوله : ﴿ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ ﴾ فنكروه لهم ، وعرضوا عليهم الدلالة عليه ، كما يدل على مجهول في أمر مجهول ؟ قلت : كانوا يقصدون بذلك الطَّنزَ والسخرية ، فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي ، متجاهلين به وبأمره»[(٣)].

---

(١) الكشاف ٥٦٦/٤، ٥٦٧ .
(٢) المرجع السابق ١٠٥/٤ .
(٣) المرجع السابق ٤٥٠/١ .

ولم تكن دراسة التنكير مقصورة على بيان المعاني البلاغية التي تفيدها الكلمة النكرة في الكلام ، وإنما كانت له وقفات يشير فيها إلى حسن الكلمة وإصابتها في موقعها . وقد رأينا إشاراته في هذا فيما قدمنا من النصوص ومن أحسنها ما قاله في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ (المؤمنون:١٨) يقول : «من أوقع النكرات وأحزها للمفصل والمعنى على وجه من وجوه الذهاب وطريق من طرقه ، وفيه إيذان باقتداره ، وأنه لا يتغابى عليه شيء إذا أراده ، وهو أبلغ في الإيعاد من قوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۢ ﴾ (الملك:٣٠) [(١)] .

وقد ذهب أحد المشتغلين بالدراسات البلاغية من المعاصرين إلى رأي في التنكير خالف فيه البلاغيين ، يقول صاحب هذا الرأي :

«وقفت طويلا عند الاسم النكرة أتبين ما قد يدل عليه التنكير من معنى ، ودرست ما ذكر العلماء من معان قالوا إن هذا التنكير يفيدها ، وبدا لي من هذا التأمل الطويل أن النكرة يراد بها واحد من أفراد الجنس ، ويؤتى بها عندما لا يراد تعين هذا الفرد ، كقوله سبحانه : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (القصص:٢٠) . فليس المراد هنا تعيين الرجل ، ولكن يراد هنا أن يصل إلى موسى نبأ الائتمار عليه بالقتل .

والنكرة بعدئذ تفيد معناها مطلقًا من كل قيد ، أما ما يذكره علماء البلاغة من معان استفيدت من النكرة فإنها لم تفدها بطبيعتها وإنما استفادتها من المقام الذي وردت فيه ، فكأنما المقام هو الذي يصف النكرة ويحدد معناها» [(٢)] .

---

(١) الكشاف ١٤١/٣ .

(٢) من بلاغة القرآن للأستاذ المرحوم أحمد بدوي ص ١٢٨ .

ثم أخذ يسوق أمثلة ويشرحها في ضوء فكرته هذه ، وقبل أن نناقش أمثلته يلزمنا أن نقف قليلاً عند ما ذهب إليه مما أثبتناه ، فقوله : أنه بدا له من التأمل الطويل أن النكرة يراد بها واحد من أفراد الجنس ويؤتى بها عندما لا يراد تعيين هذا الفرد ، كلام ذكره النحاة والبلاغيون وهو مشهور عند كبارهم وصغارهم فليس مما استنبطه هو كما أوهم رحمه الله ، ولكنهم ذكروا أيضًا أنها تدل على الجنس فهي صالحة عندهم للدلالة على الجنس أو على واحد من أفراده كقولك : جاءني رجل لا رجلان ، فهي هنا دالة على الواحد ، وكقولك : جاءني رجل لا امرأة ، فهي هنا دالة على الجنس . وقد كثر كلام عبد القاهر في بيان دلالتها على الجنس وهو يفرق بين قولنا : أجاءك رجل ؟ وأرجل جاءك ؟ وأن الأول يكون حين تريد أن تسأله : هل كان مجيء من أحد الرجال إليه ؟ والثاني يكون حين تريد أن تسأله عن جنس من جاءه أرجل هو أم امرأة ؟ وقد ذكر الفرق الدقيق بين دلالة النكرة على الجنس ودلالة المعرف بـ «اللام» على الجنس فقال : «واعلم أنَّا لم نرد بما قلناه من أنه إنما حسن الابتداء بالنكرة في قولهم : شر أهر ذا ناب ، لأنه أريد به الجنس ، أن معنى شر والشر سواء ، وإنما أردنا أن الغرض من الكلام أن نبين أن الذي أهر ذا الناب هو من جنس الشر لا من جنس الخير ، كما إنَّا إذا قلنا في قولهم : أرجل أتاك أم امرأة ؟ أن السؤال عن الجنس لم نرد ذلك أنه بمنزلة أن يقال : الرجل أم المرأة أتاك ؟ ولكنا نعني أن المعنى على أنك سألت عن الآتي أهو من جنس الرجال أم من جنس النساء»[1].

فكأن التعريف يدل على عموم الجنس بخلاف النكرة فإنها لا تدل على عموم الجنس ، وإنما هي لبيان جنس المذكور ، يقول عبد القاهر : «فالنكرة إذن على أصلها من كونها لواحد من الجنس إلا أن القصد منك لم يقع إلى كونه واحدًا ، وإنما وقع إلى كونه من جنس الرجال ، وعكس هذا أنك إذا قلت :

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٥ .

أرجل أتاك أم رجلان ؟ ، كان القصد منك إلى كونه واحدًا دون رجلان ، فاعرف ذلك أصلاً ، وهو أنه قد يكون في اللفظ دليل على أمرين ثم يقع القصد إلى أحدهما دون الآخر فيصير ذلك الآخر بأن لم يدخل في القصد كأنه لم يدخل في دلالة اللفظ »[1].

وهذا هو كلام من يتأملون ويقع في خواطرهم .

فالذي ذكره العلامة رحمه الله فيه إهمال لأحد جزئي دلالة النكرة أعني دلالتها على الجنس لا على فرد من أفراده .

وقد ذكر البلاغيون أيضًا أن النكرة لا تتجاوز هذا المعنى الأصلي في كل موضع تكون فيه إلى معنى بلاغي وإنما ترى هذا في القليل دون الكثير .

وما ذكره الأستاذ المرحوم ينطبق على حال من أحوال استعمال النكرة دون أن يشمل كل أحوال استعمالها كما قلنا . والآية التي ذكرها لا يراد فيها بالنكرة أكثر من هذا المعنى المشار إليه أي واحد من جنس الرجال ، وهذا الاستعمال لا يقف عنده البلاغيون ليقولوا شيئًا في معنى تنكيره ، أما أن النكرة تفيد معناها مطلقًا من كل قيد في كل المقامات والأحوال فهذا ما لا نوافق الأستاذ المرحوم عليه وهو ما تأباه طبيعة الأساليب ويرفضه ذوقها . وكلام أهل العلم قاطع في أن الخصوصية الأسلوبية ما دامت قد أفادت في موضع لابد أن تكون كذلك في كل موضع ، ومن المحال أن يكون التنكير والتقديم وباقي الخصوصيات مفيدًا مرة وغير مفيد مرة .

وأما أن هذه المعاني لم تفدها النكرة بطبيعتها يعني بقطع النظر عن السياق فإن البلاغيين لا يقولون خلاف هذا لأنها لو كانت تفيدها بطبيعتها ما تخلفت عنها ، ولكنهم يقولون مع هذا أن هذه المعاني تكمن في النكرة ، والسياق هو الذي يخرجها ويكشفها ، والاعتماد على السياق وحده في إفادة هذه المعاني

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٥ .

كما ذهب الأستاذ إلغاء لقيمة أحوال اللفظ وعلاقاتها بالسياق ، ومن الواضح أن السياق له خطره في الكشف عن خصائص الألفاظ والتراكيب ، وأنه كما يحدد معنى التنكير ويصفه ، كذلك يحدد معنى التعريف ويصفه ، ويحدد المراد من الذكر ، والمراد من الحذف ، والمراد من التقديم ، والمراد من الاستفهام ، بل والمراد من التشبيه ، وأبواب المجاز ، فإذا رأى العلامة إلغاء دلالة التنكير فعليه أن يلغي دلالة التعريف وباقي الخصوصيات البلاغية ، لأن الكل سواء .

ويذكر المرحوم فيما ذكر من الأدلة قوله تعالى : ﴿ **فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ﴾ (البقرة:٢٧٩) ويقول : « فكلمة « حرب » منكرة لا تدل على أكثر من حقيقتها ، وإذا كان ثمة تعظيم لهذه الحرب فمنشؤه وصفها بأنها من الله ورسوله ، وأن حربًا يثيرها الله جديرة أن تبعث في النفس أشد ألوان الفزع والرعب »[1] .

وإذا كانت كلمة « حرب » لا تدل على أكثر من حقيقتها وأن التعظيم غير مفاد من التنكير وإنما هو مفاد من السياق ، ووصفها بأنها من الله ورسوله ، فهل يبقى هذا المعنى إذا زال التنكير وبقي السياق والوصف ، أعني هل يفيد قولنا : فأذنوا بحرب الله أو بالحرب من الله ورسوله ما تفيده الآية ؟ ولم يحدث أكثر من ذهاب التنكير .

ويقول الأستاذ : دل المقام على تعظيم الاسم المنكر في قوله تعالى : ﴿ **وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ** ﴾ (الأعراف:١١٣) ، ذلك أنهم يطلبون مكافأة على عمل ضخم يقومون به هو إبطال دعوة موسى والإبقاء على دين فرعون أو لا يكون ثواب ذلك عظيمًا يناسبه ؟ فهلا يرى الأستاذ أن المقام صالح للدلالة على التعظيم لو ذهب التنكير الذي لا يدل إلا على مطلق معناه وقلنا : إن لنا الأجر ؟ ألم يدخل هذا في تأمله الطويل رحمه الله ؟

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٩ .

والواقع أن البلاغيين كانوا في هذا المقام أكثر فهمًا وأنفذ إدراكًا لخصائص التنكير مما ظن بهم الأستاذ ، وكان كشفهم عن مغزى التنكير ووجهه يقوم في الغالب على الموازنة بين أسلوب التنكير وبين ما يمكن أن يكون عليه الكلام بعد ذهاب خصوصية التنكير وبقاء السياق ، ثم يلحظون ذهاب معنى كبير من الكلمة بذهاب التنكير ، والسياق باق والمقام هو ، ومن ذلك في تفسير الكشاف تلك الموازنة بين القراءة المشهورة وقراءة أبيٍّ في قوله تعالى : ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ** ﴾ (البقرة:٩٦) يقول الزمخشري : ولذلك كانت القراءة بها أي بكلمة « حياة » منكرة أوقع من قراءة أبيٍّ « على الحياة » وقوله : ولذلك ـ أي : ولأن التنكير يفيد حياة مخصوصة أي حياة متطاولة[١] .

وكان المرحوم أحمد بدوي رجلاً صالحًا ولكنه وجد القدح في علومنا وعلمائنا بابًا مفتوحًا لا تراعى فيه للحق حرمة . ثم هو طريق سهل لمن يريد أن يكون مفكرًا أو رائدًا لا عليه إلا أن يستخف بعقول هؤلاء العلماء سواء فهم أو لم يفهم ، ولا يزال الحال كذلك وإن عظمت فيه البلوى .

* * *

(١) ينظر : الكشاف ١/١٢٥ .